روبيتا

مجموعة قصصية

هالة عيد



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : **روبيتا – مجموعة قصصية**

المــــــؤلف : هالة عيد

رقم الايداع / ٢٠١٦/٢٠٥٠٠

ترقيم دولى/ ٨-٣٨-٦٥٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٦



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦ _ ٢٧٨٧٧٥٧٤

إهداء

إلى أعزاء كانوا هنـــا

ثم غابوا وطوتهم الأزمنة

مقدمة

«روبيتا» مجموعة قصصية.. تدور أحداث قصصها في أزمنة وأمكنة مختلفة .. أبطالها يتسمون بالتميز والغرابة.. فهم في المجمل لا ينتمون إلى قائمة البشر العاديين.. بل لهم فكر خاص ورؤية أعمق وأدق عمن سواهم من البشر.. مما جعل كل منهم محورًا تدور حوله كل الأحداث.. والقطب الأوحد تأثيرًا في مجرياتها.. أغلبها مستقى من الواقع الذي يبدو أغرب من الخيال أحيانًا.

تأتي في المقدمة قصة «روبيتا».. والتي تندرج تحت عنوانها هذه المجموعة القصصية.. تلك السيدة الريفية غريبة الأطوار.. التي تنسلخ من الحاضر بكل ما يمت إليه بصلة.. وتحيا كما تريد أو كما يصور لها هاتف خفي بأعماقها.. حتى باتت على يقين لم

تستطع أن تزعزعه.. أو حتى تؤثر فيه فجاجة الحاضر وصدماته المتتالية.. بأنها شخصية من عالم آخر تمامًا.. تعشق مفردات الحياة فيه.. وتحن إلى ملامح زمانه البعيد جدًا.. والممتدة جذوره بأعماق العصور الفرعونية السحيقة.

المؤلفة

روبيتا

(١)

النبوءة

قالت لها العرافة: إياك ويوم الأربعاء .. ندت عنها آهة مكتومة .. ودمعة رثاء على شئ كان.

طفت على سطح الذاكرة خيالات حزينة « يوم الأربعاء» همست دون أن تدرى.

تذكرت « كذب المنجمون ولو صدفوا».

عادت أذنها تلتقط كلام العرافة من جديد « عمر مديد .. مديد» .. تحسست صدرها مكان القلب .. تذكرت مرضها الخطير.. ابتسمت .. همهمت « كذب المنجمون».

نظرت فى عمق عينيها الذابلتين « حزن عميد .. جرح عتيد .. سوء حظ غالب ».

أرخت طرفها مؤّمنة على الكلام .. غابت فى الزمان البعيد.

«لكن الحزن راحل .. والعكس زائل.. ولم الشمل بإذن الله عاجل».

ابتسمت: « الحزن راحل؟!!» .. ترددت الجملة بين جوانحها مرات فى صمت ودهشة.

« ولكن إياك .. إياك ويوم الأربعاء» يرتفع الصوت محذراً من جديد.

غدت كل أيامى الأربعاء .. تأخرتْ يا سيدتى التنبؤات.. حدثتها نفسها سراً .

« نصيبك من تريدين .. حتى ولو بعد حين .. أو حتى أحايين» يعود الصوت خفيضاً حانياً.

ضغطت قلبها الموجوع براحة يدها اليسرى .. تقطعت أنفاسها .. كادت تغيب.. دلكت برفق ذلك القلب المهترئ ألماً ..عادت إليه بعض الحياة.. وكانت على شفا الغروب شمسها.

ارتسمت فى عينيها النجلاوين صورة لجسدٍ مسجّى فى كفن .. وشت بها تلك الدموع المتحجرة .. لحظة إعلان عجزها عن المقاومة .. وتحمل ذلك اللهيب المتقد فى مقلتيها.

بات السر منكشفاً عارياً ..«مات الحبيب يا بلهاء» ..تدحرجت

دمعة «ومِت ألف مرة».. نزفت دمعات «وألف أربعاء».

لا تـدرى وهـى عـلى فـراش المـوت لم عبـرت ذاكرتهـا تلـك الكلمات.. ولمَ مـلأت مخيلتهـا صـورة تلـك الغجريـة ذات الـرداء الأسود.. والوشم المنمنم على الذقن حين التقتها على شاطئ البحـر منذ شهور؟!!

لا تدرى لم تريد رؤيتها الآن.. الآن تحديداً .. الآن؟!!

الآن فقط تيقنت أنها عاشت كل هذا العمر المديد .. المديد.

الآن فقط تشعر أنها عاشت طويلاً طويلاً.. حتى هرمت وتعاطت كل أوجاع الحياة.

شاخ قلبها منذ زمن بعيد لاتذكره.. كُسـر آلاف المـرات.. جـف نبضه الدافىء .. غاضت فيه الدماء.

رأسها ثقيل ..ثقيل.. لا يقوى جسدها النحيل على حملـه .. كأنهـا تحمل فوق كاهلها ألف عام.

الآن فقط أدركتْ المعنـى المخبـوء خلـف النبـرات المشـفقة.. لكنها تجاهد لتبتسم.

الآن فقط يستعد الحزن العميد للرحيل الأبدى.

الآن يندمل الجرح العتيد.

الآن.. الآن حقاً يزول العكس.

« نصيبك من تريدين » تضحك .. تصرخ ..آااااااااه!!

تفيق من إغماءة قصيرة «.. حتى ولو بعد حين».

ينكشف الكفن من فوق الجسد المسجّى بعينيها .. تنبسط أسارير الوجه الجامد كقطعة صلصال شكلت منذ آلاف السنين .. تتمرد أخيراً قطعة الصلصال .. تحتج على جمودها .. خرسها .. موتها.

الآن .. الآن فقط سُمح لها أن تراه بعيداً عن الكفن .. بعد كل هذه الدهور الطوال..تتحسسه عيناها بلهفة كل هذا العمر المديد .. المديد!

تومىء إليه « لن تبقى وحيداً يا حلم السنين».



(٢)

زمان الدفء

كان يومه مشحوناً - كالعادة- بالعمل وحوارات الأصدقاء المملة .. إلى جانب سخافات الحياة التى لا تنتهى .. وأحزانه الجمة التى تحتل أعماقه منذ آماد بعيدة وتأبى الجلاء .. عشقٌ بينها وبينه ممتد إلى ما بعد الرحيل .. عشقٌ شكَّل وجدانه وأعاد صياغة ملامحه من جديد .. بعد إضافة بضعة بصمات أخرى أكثر عمقاً تخص سنوات لم تأت بعد .. عشقٌ ساعد فرشاة السنين على العبث بثوابت الألوان والخطوط .. واختزالها فى ذلك اللون الباهت .. الذى زحف حثيثاً إلى مفارقه.. عشقٌ يعصر قلبه ويذيب روحه التى دامت تتوق إلى العشق منذ أدرك المعانى .. وعثر على ذاك العالم المخبوء بداخله .. ليكتشف فجأة أن هناك فى الوجود شيئاً رائعاً .. يخصه وحده دون البشر..

يقتبس منه حروف شعره .. فيصوغ ذاته الهائمة التائهة قصائد من طراز فريد.. ذلك الذى ينبض ويمشى على قدمين .. مترنحاً العمر مضى.. شريد الروح .. متعب القلب .. ممزق الأحاسيس والمشاعر .. طريد أمنية بسيطة .. كانت كل شئ ذات يوم .. يقايض بعمره لو تتحقق .. وآهٍ من لو!!

ارتسمت صورتها لعينيه المرهقتين .. غلفته نبراتها الدافئة .. تردد همسها خفيضاً بين جنبات قلبه.. مهدهداً طفولته المتوارية تحت عباءة سنوات ثلجية كئيبة.. غالبه النعاس على صدر الذكرى .. هام شوقاً وحنيناً لذاك الأمس!

كانت الوحيدة القادرة على إخراجه من كل هذا الذى يحيط به ويسكنه .. لملم أوراقه ومشاعره المتناثرة فى كل ركن من أركان العمر .. انسلخ من ذلك الروتين اليومى .. الذى حوَله إلى آلة صماء مبرمجة .. فاراً ببقايا تلك الأمنية البسيطة.. التى دامت تسكن فطرته منذ أن ترك بلدته الصغيرة .. حاملاً فوق كاهله تسعة وعشرين شتاءً .. باحثاً عن ذاته وهويته .. مكافحاً ثلوج الغربة فى أحضان مدينة بلا قلب .. مودعاً إلى الأبد أزمنة الحنان وبقايا الدفء .. وأشياء كان لها طعم الحب!

أمسك بهاتفه المحمول استعداداً للمغادرة .. ضغطت يده رقم

حبيبته تلقائياً من دون أن يدرى.. لكنها لم تكن فى انتظاره مثل كل ليلة.. كى يبدآ أمسيتهما الرائعة تحت سماء المدينة .. المتوهجة بأضواء النيون والفلورسنت .. طرقات كثيرة كان من المفترض أن يمرا بها .. شوارع كثيرة كان لابد أن يعبراها إلى الجانب الآخر .. منعطفات عديدة كان يتعين عليهما أن يسلكاها!

يمشى صامتاً محدقاً فى هاتفه الذى أصابه الخرس .. تسائله قسمات الليل الحزينة.. الأضواء.. الطرقات .. نفس السؤال الحائر.. الذى ارتسم فى عيون بائع السجائر المندهشة منذ قليل .. والذى لمحه فى عيون أفراد الأمن بأسفل.. بينما كان خارجاً من المصعد بمفرده.. على غير العادة!

قالت له ذات ليلة «لقد أصبح لى ذكريات جميلة فى تلك الشوارع ..التى لا أعرفها ولم أمر بها قط...» وقبل أن تكمل كلامها هرول يعدها أنها ستمشيها حتماً .. ومعه هو دون البشر!

هبط درجات النفق ساهماً .. مشى وئيد الخطى إلى مقعده المعتاد فى انتظار المترو.. وبنفس اللاوعى الجميل.. الذى تملكه منذ ألحت به الذكرى .. يخيل إليه أنه يحدثها .. ثم ينظر إلى هؤلاء المستريبين المكدسين على الرصيف المقابل مؤكداً: «آه بحب فى التليفون.. فيه مانع؟».. يطن فى أذنيه رجعٌ يعشقه « كفاية جنان بقى

ده خامس مترو يفوتك».

يهمس حانياً دون أن يدرى «ولا يهمك يا عمرى.. فداك ألف مترو».. يعلو الرجع بتوسل ودود « الدنيا برد وده آخر مترو»

يدندن « يا ادفا احساس شدنى خلانى ادوووب » .. تصحح له ما حرّفه عامداً من كلمات الأغنية الشهيرة بنفس الدندنة « يا أعلى احساس شدنى خلانى ادوووب» .. يصر مكرراً « يا ادفا احساس شدنى خلانى ادوووب».. تبتسم قائلة : « افهم من كدا انك مش بردان بجد .. مصدقاك.. عشان خاطرى طيب » .. يستجيب متكاسلاً .. يقدم خطوة ويؤخر أخرى .. حتى يكاد يفوته آخر قطارات الليل!

تنفرج شفتاه بابتسامة مرهقة وهو يتذكر تلك الليالى الكثيرة .. حين كان يكتشف فجأة أن القطار تخطى محطته.. لحظة أن ينتبه من شروده اللذيذ فيها ومعها .. يجرى مسرعاً إلى الرصيف المقابل.. محاولاً اللحاق بآخر قاطرة .. ليكملا بعدها آخر طقوس الأمسية المعتادة .. أخيراً التقى النصف مكمله الذى عاش العمر ينقب عنه فى البشر .. انشطرا طويلاً قبل هذا التوحد .. تاها مراراً قبل تلك اللحظة .. يعرفان هذا جيداً.. ويؤمنان أنه لا حياة لأيهما من دون الآخر .. واحد صحيح هما لا يقبل الانشطار أو أياً من أنواع القسمة.

فى هذه اللحظة تحديداً يود لو يصرخ بأعلى صوت .. يود لو يعيد عقارب الزمن إلى الوراء فلا تعبر أيامها.. يـود لـو يمتلـك جنـاحين فيطير إلى رحابها.. يفرد ذراعيه عن آخرهما.. يضـمهما بقـوة معانقـاً الهواء .. زمن طويل لم يشعر بالدفء .. زمن مرير كئيب لازمـه الألم كظله .. يشتاق بجنون إلى همس كان يطوقه .. يربت قلبـه الموجـوع .. يزيح ذاك الجليد المتراكم فوق كهولته الهشـة.. فتنـتفض روحـه الثلجية .. يحاول اقتلاع قدميه من أرضية الشـارع المـؤدى إلى بيتـه دون جـدوى .. تسـمرت قـدماه فى ذات البقعـة.. أمـام ذلـك البنـاء الفخم الذى لم يكن ضمن أحلامه ذات يـوم أن يسـكنه.. ربمـا كـان يعبره دونما يلتفت إليه .. لكنه اليوم يود لو يحتضن أسواره العاليـة .. يقبـل تلـك الأبـواب والشـرفات .. يجـوب كـل الردهـات والممرات.. بحثاً عن الحبيبة التى باتـت تسـكنه.. يجـىء سـؤالها المعهود «وصلنا فين دلوقت؟» وكالعادة يطلب منها أن تجيب «قولى انتى» فتقول وقد تغيرت نبرتها وخفت إلى حد التلاشى صوتها «قدام القصرالجمهورى»!

بضعة أمتار متبقية.. إلى البيت الذى لن تسكنه أبـداً.. تعنـى أنهـا لابـد أن تقـول وداعـاً.. تخبـو الضـحكات والصـخب .. وحثيثـاً حثيثاً يخيم هدوء كثيف .. بلون الغربة وطعـم الوجـع ..علـى تلـك

البقعة من الأرض أمام القصر الجمهورى .. يرجىء كلاهما قـدر مـا يمنحه الليل من بقاء كلمة الوداع!

فى صمت قاتل وملالة .. وقبل أن يأوى إلى كرسيه الخيزرانـى .. القابع فى أقصى يمين الشـرفة.. ليـدخن آخـر سـجائره.. يحـاول أن يتذكر موضع مفتاح الشقة.. بين كل هذا الكم من الأشـياء المبعثـرة بداخله.. يمـرق مـتململاً إلى الـداخل .. يمـارس طقوسـاً عاديـة.. تصدمه فجأة بأنه يتعاطى الحياة ..لم يزل!



(٣)

لا جديد تحت الشمس

هنا على أطراف الحدود الشمالية للبلاد يتجسد السحر.. يطوى البحر سره بين أحشائه.. يتيه فى غموض رهيب.. تموج على شاطئه الأيام.. تمتد يده الحانية من تحت جسر عتيق .. لتربت على صفحة البحيرة الناعسة فى كنفه.. مانحاً إياها العطف والأمان.. يعانق النهر الجميل تحت ظلال وارفة من الروعة والجمال.. تحف بالمكان خضرة نادرة والرونق والحسن.

هنا تماماً على مقربة من الشاطىء.. تربض فى سلام مجموعة من البنايات والأكواخ البسيطة.. والناس البسطاء الطيبين..تعلو أغاريد الرضا آفاقهم ليل نهار.

عشقوا البحر قدر ما رهبوه وارتاعوا منه.. قدر

ما أوجعهم فراق الأحبة وحبات القلوب .. الذين ضاعوا تحت عبابه..عاشوا على ما يجود به الرب حامدين شاكرين.

ليس أهم من البحر فى حياتهم.. وليس الشاطىء الرملى الممتد كيلوات طويله.. إلا طريقاً مؤدياً إلى البحر وحسب.. لايختلف كثيراً عن سائر الطرق الرملية .. التى يعبرونها فى الذهاب والإياب.. هكذا توارثوا عن آبائهم وأجدادهم.

ومع الفجر جهز الصيادون الشبان شباكهم وأدواتهم.. تجمعوا على ظهر مركبهم البسيطة «مرزوقة».

انطلقت فكاهتهم وضحكاتهم الرائقة كقطرات الندى تجوب الآفاق.

دار الغمز واللمز بين الشبان الستة عشر المتجمعون على ظهر المركب.. ينظرون إلى بعضهم البعض.. بعد أن يختلسوا النظر إلى الريس «شعبان».. ريس مركبهم التى تستعد الآن لرحلة صيد بعيدة.. تستمر أياماً وليالى طويلة.

« مال الريس بلاميطة شوكته مكسورة كده ياولاد» همس أحدهم.

« إياك يسمعك.. وهو يخلى نهارك زفر.. شعبان ياوله.. شعباااان»

رد آخر.

ودارت الهمسات بين الشبان منصبة على حال الريس شعبان.. والست بياضة حرمه التى تعشق النكد مثل عينيها.. ولكنهم عادوا وجزموا أنه يستحق ما يحدث له.. لأنه لم يسمع نصيحة والدته.. ولا نصائح كل الناس فى القرية.. وفضل أن يجرب بنفسه لسانها السليط وطباعها التى لا تطاق.

تذكر منصور والده الذى أخذته النوة منذ سنوات طويلة.. لا يذكر عدتها ولايذكر ملامحه جيداً.. كان فى مثل عمر الريس شعبان تماماً.

فجأة جاء صوت الريس شعبان من أقصى المركب صائحاً بلا حماس.. ليتنبه الشبان أن الرحلة قد بدأت للتو.

ودّع الشبان الديار بأبصارهم ولم تودعها قلوبهم.. تدور بأذهانهم ذكريات جميلة وغالية..تلوح لمخيلاتهم بيوت صغيرة.. شيدوها على الرمال فى الزمان الأول..وأحلام بعدد نجوم السماء.

شيئاً شيئاً ابتعدت المركب عن الشاطئ.. وشيئاً شيئاً يتلاشى الكوخ القديم المنعزل عن القرية .. وتتلاشى معه معالم القرية.. وهيكل «صدفة» الواقفة إلى جوار الكوخ ترقب المركب حتى توارت تماماً.. ووجدت عيناها صعوبة بالغة فى تتبعها.

تاهت المركب فى عرض البحر.. ولم يزل منصور يلّوِّح بقلبه

ومقلتيه من على حافة المركب .. فى صمت دون أن يشعر بـه أحـد.. لولا شروده الذى ينمّ عما يكابده من لوعة الفراق.. وقد توارت بقايا الفنار الأثرى الرابض على حافة الشاطئ هى الأخرى تماماً.

ظلت صدفة ملتصقة بالكوخ القديم كأنها بعض جـداره..تطـوف برأسـها خيـالات ورديـة عـن منصـور ..والفـرح الـذى سـيقام بعودته..الزفة والفسـتان الأبـيض .. الشـربات والزغاريـد..الـورود والعطور والناس.. الدنيا الجديدة المرهونة بهذه الرحلة.

فجأة فزعت الملامح الحسناء الحالمـة.. شـئ مـا يُصـدر صـوتاً مريباً داخل الكوخ.. كأنه فحيح أفعى.

« بل حرَّك الهواء شيئاً بالداخل.. فالجو اليـوم متقلـب» قالـت فى نفسها.. وسرعان ما عـادت لأحلامهـا الناعمـة لصـق هـذا الكـوخ القديم .. الشاخص منذ آماد بعيدة جعلتـه.. بطـلاً أسـطورياً أوحـد لكل حكايات الصيادين بالمنطقة.

قالوا كوخ أول صياد عاش بالمنطقة.. وقالوا كوخ مسحور لـيس من صنع البشر.. مسكون هو بالعفاريت.. بل كوخ عروس البحـر.. وأقسم بعضهم أنهم رأوها تتسلل إليه مع الغسق .. وتغادره مـع أول خيوط الفجر.

ويضحك المحبون من هذه الأقاويل سـراً.. ويحمـدون الله عـلى

هذا الاعتقاد .. الذى لولاه ما رهب الصيادون هذا الكوخ كل هذه الرهبه.. وما تركوه خالياً هكذا.. وما كان للمحبين محراباً يبثون فى ظلال حجبه صبابتهم.

رويداً رويداً بدأ الضوء المنبسط على الكون يتلون وتحتد الرؤية عبر ثناياه.. انتشر الصغار على الشاطئ كالعادة.. يفردون شباكهم الصغيرة فى محاولة فطرية للتدرب على مهنة الآباء والأجداد.. وبعضهم يجمع القواقع والأصداف التى تقذفها الأمواج على الرمال.

وهناك على البعد فتيات صغيرات.. تجمعن أبصال النرجس من قمم التلال لتغرسها أمام البيوت والأكواخ.. ليأتى الربيع الواقف بالأبواب فينعشها وتتفتح زهورها البهية .. ويحل موسم الراحة للصيادين فتقام الأفراح .. وتُنصب ساحات المرح.. حياة جميلة على بساطتها.. الجميع يؤمن بالقضاء والقدر.. لا يحمل همَّ الغد أو الرزق.. كل صياد يعلم يقيناً أنه ربما يذهب ولا يعود.. لكنه راضٍ بمشيئة الله حتى ولو كانت اللاعودة.

« البحر موجود .. والرزاق يجود» هكذا يقولون دوماً .

ومع ارتفاع الشمس إلى عنان السماء الغائمة المضطربة.. همت صدفة مسرعة بالعودة إلى البيت .. تدرب نفسها على تحمل كلمات

أمها اللاذعة بسبب تأخرها بالخارج.

ومع حلول الضحى تجمع الصيادون على المقهى الوحيد بأطراف القرية.. جلسوا يتباحثون تلك المشاكل التى طرأت على مهنتهم ..التى يتعيشون منها ولا يعرفون غيرها.. وحال البحيرة الذى أصبح لا يسر عدواً ولا حبيباً.. تحلَّق الجمع حول شيخ الصيادين.. ووسط صيحات صبى المقهى.. وضجيج الأمواج التى يقبل رذاذها وجوههم أمام المقهى.. بدأ الحوار متداخلاً وغير مرتب.

« المسألة طولت وغمّقت قوى ياريس» قال أحد الصيادين ضجِراً.

« يا جماعة إن الله مع الصابرين» قالها شيخ الصيادين محاولاً تهدئة الموقف الذى يعرف حقيقته جيداً.. كما يعرف تماماً ماذا تعنى البحيرة بالنسبة لهم.

أطرق العجوز إلى الأرض محاولاً إخفاء قسمات وجهه المنقبض.. خوفاً على مصير هؤلاء الصيادين وأسرهم البادى فى الأفق.. خصوصاً بعد كلام المسئول له بالأمس.. والذى يزلزل أعماقه الآن.. فقد كشف عن نواياه بكل بجاحة.. وأعلنها صراحةً بأن عليهم تقبل الوضع الراهن.. وعلى المتضرر زرع رأسه فى قاع

البحيرة.

نهض الشيخ متوجهاً مرة أخيرة لمكتب المسئول بالمدينه الكبيرة .. على بعد كيلوات كثيرة من القرية المنفية بعيداً على الشاطئ.. بينما انشغل بعض الصيادين بترقيع غزلهم .. والبعض بمحاولة يائسة للصيد فى البحيرة.. فى حين ظل آخرون يحتسون الشاى والقهوة والحلبة.. وينفثون غضبهم مع دخان الشيشة الذى يتصاعد إلى أعلى.. مكوناً طبقة أخرى من السحب.. غير تلك البادية فى كبد السماء فوق رؤوسهم.

خلَّفت المركب وراءها مدناً كثيرة.. والشبان على متنها يحلمون ويشيدون الآمال.. تعلو أصواتهم بأغنيات جميلة حفظوها عن الكبار.. ورددوها منذ أدركوا الحياة.

اختفت وراءهم رشيد..كما تلاشت الأسكندرية الجميلة خلفهم بعد عبورهم ميناء الصيد بها إلى مرسى مطروح.. حيث كانت وجهتهم.. وقبالة شواطئ السلوم جعل الشبان يفردون شباكهم ويجهزون أدواتهم.

« توكلنا على الرزاق» قالها الريس شعبان أولاً.. ثم دارت على ألسنة الشبان الواحد تلو الآخر.. مضت عدة ساعات والشبان تكاد تطير قلوبهم فرحاً.

الرزق وفير.. والخير كثير.. فالأسماك تكثـر فى هـذه المنطقـة فى هذا الوقت من السنة.. هكذا أكدت خبرة الآباء والأجداد.

مضــت أيـام الرحلـة ممتعـة كلهـا.. مليئـة بالعمـل.. بـالخير.. بالضحك.. بالغناء الجميل.

« الحمد لله.. استعدوا للعودة يا شباب» قال الريس شعبان فى ود.

« جاهزين ياريس» رد الشبان فى صوت واحد.

بعد أميال قليلة فى طريق العودة.. شعر الشبان بانحراف المركـب قليلاً عن مسارها.. بدت الرياح شديدة بعض الشئ.

تضرع الريس شعبان إلى الله خفيـة فى تلـك اللحظـة بـأن تخيـب ظنونه.. وأن تذهب كل خبراته إلى الجحيم.. تمنى بالفعل أن تكـون مجرد ريح تداعب المركب قليلاً أو حتى كثيراً.. ثم تذهب إلى حـال سبيلها.

لكن الريح اشتدت علـى عكـس مـا اشـتهى.. زلزلـت المركـب بعنف.. هرع الشبان إلى مقدمة المركب.

« النوة ياريس» صاح منصور.

« لله الأمر يابنى» قال الريس شعبان مستسلماً.

« اقف هنا يا منصور.. وأنت يا حامـد هنـا مكـانى.. خـلى بالـك

كويس ياحامد.. وانت يا حسن هناك.. وانتم ياشباب تعالوا هنا »
أردف الريس مسرعاً.

جعلوا ينزحون الماء الغزير الذى ملأ سطح المركب.. وكلما نزحوا ازداد الماء غزارة.. لكنهم لم ييئسوا وواصلوا عملهم.

تتضاعف الماء على سطح المركب.. ارتعدت أوصالهم.. أدركوا أنها النهاية.. لكنهم ظلوا ينزحون فى ذلك العزم المستمد من الفرصة الأخيرة للتشبث بالحياة.

غطى الماء المركب عن آخرها وتلاطمت فوق سطحها الأمواج.. بدأت تترنح فى عرض البحر.. تتهاوى شيئاً شيئاً إلى القاع.. وبآذان الشبان الستة عشر تدوى زغاريد العرس.. وتهانى العيد القادم بعد الغد.. معتذرين لعروس منصور عن عدم الوفاء بالوعد.



(٤)

يوم عادي جداً

حالة من الطوارئ تعم المدينة الصغيرة.. ألق على غير العادة .. لغط لا تكاد تتبينه الآذان.. وما يلبث أن يتحول إلى ضجيج وصخب.. فجأة يهدأ الجميع فلا يُسمع إلا همساً.

باقات لا تحصى من الورود والزهور.. عشرات الآلاف من الجنيهات فى صورة زخارف وزينات.. آلاف آخرى كثيرة من الأطفال فى مراحل التعليم المختلفة.. ومثلهم أو يزيد من المدرسين والموظفين.. مصطفون من الفجرية على جانبى الطريق.. حاملين بادجات خاصة بالجهات التى ينتمون إليها.

كل ذلك جعل خطى «علا» طالبة الفنون الجميلة تتثاقل كثيراً.. لم تعد قضيتها الأولى الآن

هى الوصول إلى كليتها.. كما هى قضيتها الأساسية منذ أكثر من عامين.. حال خروجها من البيت فى هذا الوقت.

جالت عيناها مرتابة بين جموع المحتشدين على جانبى الطريق.. وهى تحاول استقراء السبب دون جدوى.

« ترى ماذا يجرى الآن أيها الطيبون المصلوبون على الأرصفة» همست فى نفسها مندهشة..وتهيأ لها الناس وكأنهم دمى مزركشة.. أو ربما أعمدة مبهرجة.. أو أشرطة ملونة تزين جانبى الطريق.

دارت يمينا ويساراً.. وعيناها مازالت تجوس خلال الجموع الغفيرة بنفس الدهشة.. ونفس اللاجدوى.

دفعها الفضول إلى استرجاع كل المناسبات التى يحويها ذهنها.. وتكتظ بها ذاكرتها .. فلم تتصادف إحداها مع هذا اليوم على الإطلاق.

يوم عادى جداً .. مثل الغالبية العظمى من الأيام.. لا تميزه أية مناسبة.. ولا يزيد عن كونه يوما مرهِقاً.. يضيف إلينا المزيد من العناء.. ويطيح بلبنة جديدة من صرح العمر.

« ما مناسبة هذا الكرنفال إذن؟!» تعود وتهمس فى نفسها من جديد.

ليس تشييع جنازة بالطبع.. فالجميع فرح مرح..راسماً ابتسامة عريضة جداً على الشفاه..وهذه الألوان الزاهية المتباينة تؤكد ذلك.

ربما هو أحد السباقات الرياضية.. ماراثون مثلاً؟! وهؤلاء المصطفون هم المتسابقون.. فقط ينتظرون صيحة البداية.. قد يكون بالفعل.

« لا.. لا.. فمركز الشباب بالمدينة ليس بهذا التطور.. حتى يتسع أفق القائمين عليه لمثل هذه السباقات» قالت فى نفسها وهى تتذكر يوم أن ذهبت إلى هناك يحدوها الأمل.. مفعمة بالحماس.. لعرض فكرة تكوين فريق من الفتيات لكرة اليد.

« فريق بنات إيه.. وكرة يد إيه يا آنسة.. هو فيه أصلاً فريق للولاد.. ولا فيه مكان أو ميزانية للكلام الفارغ ده .. انتى فاكرة نفسك فى نادى الزمالك ولا نادى الجزيرة؟» مازالت كلمات مدير المركز الجهول تدوى فى أذنها.

« إنسان بهذا الجمود لا يتسع أفقه لأكثر من دفتر الحضور والانصراف.. صح النوم يا آنسة علا!» حدثت نفسها فى صمت.

« هو فيه إيه النهارده؟!» قررت أخيراً الخروج عن صمتها متسائلة.. وفى استنكار كبير التفت إليها أكثر من عشرين شخصاً متطوعين بالإجابة.. وكأنها أجرمت حين ألقت بسؤالها هذا خارج

حنجرتها.. أو أنها قد كشفت به عن جهلها العميق..فكان ولابد أن تكون على دراية بمناسبة اليوم.. بل وتكون ضمن المصطفين على جانبى الطريق.. ولكنهم على أية حال أخبروها أن مسئولاً كبيراً سيزور المدينة اليوم.

« مستحيل!! مستحيل!!» قالتها فى شبه صياح .. فقد ظنت أن الناس تجاوزت هذه الخزعبلات منذ زمن بعيد.

« أوِ يابلادى .. ضيعك أهلك بجهلهم.. أى بروتوكول هذا الذى ابتكره هؤلاء.. أى رقيب سمح لهم بإهدار كل هذه الأموال..أى عاقل يرضى بهذا السفه؟!» أردفت بنبرة أشبه باليأس من انصلاح أحوال بلد هؤلاء أفراد شعبه.

« لقد أخطأتم فهم الآية يا قوم .. فليس هذا هو اليوم المجموع له الناس» تمتمت وهى تهم بالانصراف إلى حال سبيلها.

دارت عيناها فى كل اتجاه.. تبحث عن وسيلة مواصلات واحدة.. تنقلها إلى كليتها فلم تجد..وبعد السبع دوخات أخبرتها مجموعة أخرى من المتطوعين.. وما أكثرهم فى هذا اليوم.. بأنه لا أمل فى العثور على ضالتها إذا ما بقيت بمكانها ولو ألف عام.

لَمَ يا قوم؟ السبب بسيط .. لقد تم إخلاء الموقف بوسط المدينة..إلى أين؟ لا أحد يدرى.. ربما إلى أحد أطراف المدينة.. أو

إلى لا مكان.. فلا أحد يهتم.

« ما هذا العذاب ياربى؟ الزيارة دقائق معدودة.. والخسائر جد كبيرة.. وأيضاً تعطيل مصالح الناس.. والمصيبة الحقيقية انه قد لا يأتى المسئول اليوم.. ويتكرر هذا الغباء مرات ومرات!» تمتمت وهى تحاول الاهتداء إلى وسيلة مواصلات ترحمها من هذا العبث.. الذى يتجسد أمام عينيها الآن.. ومن سخافة القائمين عليه.

تاهت بين نفر من البشر.. شغلتهم مصالحهم وهموم المعيشة.. عن الترحيب أو الفرجة.. فتكدسوا فى مدخل المدينة بحثاً عن أية وسيلة والسلام.. حتى ولو كانت عربة نقل الموتى.

ألهبت شمس آيار جسدها النحيل بسياطها الحامية فاشتعلت وجنتاها .. وتفصد العرق من جبينها... زفرت غيظها ساخطة على هذه المسرحية الهزلية.

« قم يا والدى.. فليس ثمة أمل فى الذهاب إلى أشغالنا اليوم..الله يجازى الأغبياء!» قالت وهى تلتفت عن يسارها لتمسك بيد العجوز الذى أجلسته منذ ساعة أو اثنتين على صخرة مجاورة.. بعد أن خارت قواه وعجز عن تحمل الوقوف.

« يفعل الله ما يريد» همهم العجوز وهو يحاول الإمساك بعصاه.. لتساعده على الوقوف ثانيةً.. فى وهن وعناء.. تغيب أنفاسه وتجىء

مع كل كلمة.. مؤكداً أنه لم يعد فى العمـر أكثـر ممـا مضـى .. حينمـا تذكر أنهم فى التأمين الصحى لن يصرفوا له العلاج إذا تخلف اليوم.. فالدواء يُسكّن آلامه.. ولكن ما عساه أن يفعل.

«كله بأمره» قالها ثم انصرف وئيداً إلى حيث جاء.

مضت عائدة.. تاركة وراءها كماً من الغليان فى صدور الناس على أعتاب المدينة.. يكفى للزج بهم إلى حيز الجنون بمنتهى السـهولة.. عالقة ببصرها صورة ذلك المسن.. الذى يحكى وهنـه قصـة كفـاح دامت عشرات السنين.. وينمّ عن ما يرعى بجسده من أمراض.

يطن بأذنها على امتداد الطريق.. صوت ذلك الرجل الذى يحمـل حقيبة معينة.. ويرتدى زياً رسمياً رغم الجو الخـانق هـذا الصـباح منذ ساعاته الأولى.. وهـو يصـيح فى كـل اتجـاه.. لـدى محكمـة يـا ناس.. الجلسة بدأت يا عالم .. سيارتى ..الحادثة ..الميكانيكى.. يـا خلق هوووووه!



(٥)

زهرة الياسمين

لم يكـن فى طبعهـا الثرثـرة.. أو المشـاركة فى حـوارات.. غيـر التـى يقمحها فيهـا رغمـاً عنهـا رفيقاتها بالدار.

تفضـل هـى الوحـدة دائمـا ..تخلـو إلى نفسـها ساعات طويلة .. تعزف طويلا على آلة البيـانو التـى تعشقها.. حتى قبل أن تصبح مدرسة للموسيقى فى فجر شبابها...

تحدق شاردة فى آفاق بعيدة.. لا وجود لها إلا فى خيالهـا..تحملهـا النغمـات العذبـة إلى عـالم رائـع تفتقده.. عالمها الحقيقى الذى لم تعثر عليه يوماً.

ناعمةٌ هى .. حالمةٌ كخد وردة نديـة.. ملائكيـة الصـوت والصـفات..رقيقـة إلى درجـة الشـفافية ..هادئة الطباع إلى حد يقترب من الملل.

حيَّر صمتها الدائم وشرودها الرفيقات.. لغز هى بالنسبة للجميع.. منذ أن قدمت إلى الدار قبل ما يقرب من العامين.

اخترعت كل واحدة منهن لها قصة.. نسجتها بعناية وأصرت أنها الحقيقة.

« زهرة الياسمين» ليس اسمها الحقيقى.. لم تكن هى نفسها تعرف هذا الاسم إلا فى اللحظة الأولى التى وطأت قدمها أرض الدار.

تسمرت الإخصائية الاجتماعية.. حين رأتها على البوابة الخارجية للمبنى تود الدخول.. حملقت فيها مشدوهة.. تمنت لو أنها نزيلة جديدة بالدار.. هى كذلك بالفعل.. لكنها تبدو أصغر من سنها كثيراً.. أنيقة جداً..ورشيقة جداً..هى فى مجملها العام جميلة جداً.

ظنتها الإخصائية مفتشة من الوزارة .. بعد أن استبعدت تماماً أن تكون نزيلة جديدة..فنزيلات دار المسنين لهن سمت مختلف.. أسرعت معتذرة عن اعتراض طريقها بهذا الحمق غير المقصود « تفضلى..تفضلى..هذا مكتب الست المديرة»...

بعد فترة استدعتها المديرة لتشرح للأستاذة آيات عبد الفتاح مديرة مدرسة البنات الخاصة سابقاً نظام الحياة بالدار.

« بل زهرة الياسمين» همست الإخصائية وهى تهم بكتابة اسمها

وتسجيل بياناتها فى سجلات الدار.

منذ ذلك الحين صار اسمها زهرة الياسمين.. فلا يعرف أحد مطلقاً اسمها الحقيقى..

«لله فى خلقه شئون!!».. عبارة واحدة فقط على لسانها دائماً ترددها وهى تبتسم بهدوء عندما تسمع تلك الروايات عنها.

تكاد تموت كمداً من ردها هذا السيدة ثريا.. أو الحشرية كما يسمونها بالدار.. لكنها لا تسأم أبداً من محاولة حملها على الكلام.. مالت هامسة فى أذنها « مدام عنايات بتقول ولادك هما اللى جابوكى هنا».

لم تكن ابتسامة زهرة الياسمين كافية مطلقاً للرد على هذه القصة الجديدة المنسوجة حولها..بل خرجت من طور الصمت المطلق إلى أول نغمات الرنين.

« أولادى؟!» ضحكت هامسة.. ورأتها قصة مسلية جداً فأرادت أن تعرف إلى أى مدى يمكن للوهم أن يلعب بالعقول ويأخذ البشر للخيال.

« آه..آه.. أولادى.. لابد أنهم السبب بالطبع» قالتها فى تأثر يشبه الأسى إلى حد كبير.. فغرت مدام ثريا فاها.. ثم افتعلت على الفور

مشاركتها التأثر قائلة «يعنى الكلام دا صحيح.. يا حراام!!»

تسربت بعض الضحكات الخافتة الأخرى.. وهى ترقب لهفة تلك الحشرية واشية الدار لمعرفة المزيد.

« بالطبع يا مدام ثريا.. ولمَ لا.. لكن هذا لو كان لدى أولاد؟»

- إذن انت لم تنجبى مثلى؟

- ليس بالضبط.

- حيرتنى!

- سلامتك من الحيرة يا مدام ثريا.

- ولم إذن تركت بيتك وأتيت إلى هنا؟!

- تبرعت بشقتى لجمعية خيرية ترعى الأيتام

- إذن ليس لديك أولاد؟

- بل لى.

- حقاً!

- هؤلاء الأيتام أبنائى.. لم أحب فى حياتى شيئاً أكثر من الأطفال.. عسى الله أن يتقبلها منى صدقة جارية!!

«ولكن لَمْ لَمْ يكن لديك أولاد؟!» لم تكتف ثريا الحشرية بكل ما

سمعت وعاذت متسائلة...

- لأنى آثرت الحب الباقى

- لا أفهم

- لا تشغلى بالك

- أتيت هنا باختيارك إذن؟

- يهىء لى هذا

- يهيأ لك؟ ردودك غريبة جداً..فزورة هى؟ إما نعم .. وإما لا.

- يامدام ثريا.. الاختيار فى هذه الحياه مسألة نسبية .. فهو ليس مطلقاً بالنسبة لنا نحن البشر.. وهل يملك أينا حق الاختيار الحقيقى أو الكامل؟ قد يبدو فى الظاهر أنه بأيدينا.. والحقيقة أنه قدر لابد نافذٌ فينا.. مهما كانت رغباتنا الحقيقية.

- فلسفة عالية أنا مش قدها.

- لا فلسفة ولا غيره.

ورغم كل الردود لازالت تحاصرها الحشرية بأسئلتها..وفضولها الذى لا يحتمل.. وهى تجيب على نفس المنوال .. بغموض ورزانة كعادتها على الدوام.

هى لا تسأل عن أى شىء يخص أى إنسان.. فلمَ تحاصرها تلك المرأة الفضولية بكل هذه الأسئلة؟ لا تجد تفسيراً ولا مبرراً سوى أنها بالفعل حشرية...

على أية حال هى لا تبدو ضجرة من تساؤلاتها على كثرتها وشدة خصوصيتها.. بل تزداد ضحكاتها الهادئة مع حيرة مدام ثريا ..التى تشفق عليها من شدة فضولها هذا..الذى يبدو أثره متعباً جداً على قسمات وجهها.

اليوم تبدو زهرة الياسمين غريبة جداً.. على عكس طبيعتها تماماً.. تريد أن تتكلم طول الوقت.. تود ألا تصمت أبداً.

تعلو الدهشة وجوه الرفيقات.. تتلهفن لأن تبوح بأى شىء عن حياتها السابقة..تنظر كل منهن إلى الأخرى فى شبه تساؤل« لمَ لا تبدأ كلامها؟».

لم تسمح زهرة الياسمين بأن يظل التساؤل مرسوماً فى العيون أكثر من هذا « أردت فقط أن أحكى حكاية تسليكن.. موافقات؟».

وتجيب كل العيون التى لم يزل مرسوماً بها نفس التساؤل بكل اللهفة.

تبتسم من أعماق قلبها..تهمس كتغريد بلبل صباحى« أرجوكو

لزوم الصمت.. هاحكيلكو حكاية بنت..ولاختصار الوقت..كان فيه زمان بنت.....» وتنخرط تحكى وتحكى كما لم تتكلم من قبل قط.

« وتوتة توتة.. فرغت الحدوتة» تغيرت الابتسامة قليلاً ..غزاها بعض الحزن..الشوق.. الحنين..لكنها لاتزال مبتسمة.

« جميلة جداً حكايتك » فى صوت واحد عقبت الرفيقات متأثرات!

« تذكرنى بحكايات ألف ليلة وليلة .. تشبه حكاية ست الحسن.. خيالك رائع!!» واصلت إحداهن الكلام.

« إنها قصة حقيقية يا عزيزات.. ليست من بنات أفكارى.. وأعرف صاحبتها جيداً» همست بنفس الهدوء والابتسامة.

- تعرفينها؟!

- نعم.. كما أعرف نفسى.. هى فى نفس عمرى.. وتشبهنى تماماً.

- والفارس الذى أحبته؟

- أعرفه أيضاً كما أعرفها..بل أكثر بكثير مما أعرفها

- وأين هى الآن؟!

- وهو؟!

- وماذا حدث؟!

- هل تزوج بأخرى؟!

- وهل تزوجت غيره؟!

- هل عاد إليها ثانيةً؟!

- هل..........؟؟!!

اتسعت ابتسامة زهرة الياسمين قليلاً « مهلاً.. مهلاً يا رفيقات.. لا.. لم يحدث هذا كله..لم يتزوج بأخرى..ولم تتزوج هى غيره قط..فلم تحب سواه فى حياتها.. يمتزج هو بروحها ودمها وكيانها.. ذكراه هى الهواء الذى تتنفسه..تحيا بطيفه الذى لم يغب عنها لحظة منذ رحيله...»

لاذت بالصمت والدموع تتساقط على خديها فى هدوء يشبه ابتسامتها الرقيقة التى ظلت مرسومة على شفتيها طيلة الوقت.

- رحل.. تركها؟

- مات!!

- مات؟!

- أوه..مسكينة!!

- بـل حـى بـداخلها يـا حبيبـات.. يعـيش معهـا عمرهـا لحظـة بلحظة.. يشاركها كل الأشياء.. أفراحها.. أحزانهـا..آلامهـا.. حتـى شرودها وصمتها.. تسعد بكل يوم يمضى بها إليـة..تحيـا فقـط عـلى أمل اللقاء...

« اللقــاء.. اللقــاء..اللقــاء...» أســندت رأســها إلى الكرســى البلاستيكى نصف الدائرى مستريحة تماماً.. استرخت كما لم تسترخ من قبل.. وظلت تردد بصوت خافت جداً.. ناعم جداً.. ثم أغمضت عينيها وقد اتسعت ابتسامتها أكثر...

مسحت العجائز دمعاتهن المتضامنة مع دموع زهرة الياسـمين.. ربتت مدام ثريا على يدها الممدودة فى استرخاء تام وسكينة على أحد جانبى الكرسى.. سقطت اليد إلى أسفل باردة متصلبة.



(٦)

السماء تمطر بشراً

تسللت بعض أشعة شمس آذار الهادئة .. من خلف حُجب الغمام الكثيف .. الناشر عباءته على الكون .. لتمنح البلدة الصغيرة بعض الدفء.. إلى حين تُعلن السماء احتجاجها على ذلك الطواطؤ.. وتصب جام غضبها على الجميع.

نادت الأم زوجة ابنها وابنتها العروس .. التى حصلت على شهادتها المتوسطة فى العام الماضى وتنتظر يوم زفافها.. والذى سوف يحين فى موسم الحصاد بعد أسابيع قليلة.. جعلت الأم تستحثهما على الإسراع بالانتهاء من إعداد الطعام .. قبل عودة الرجال من الحقل.. لتناول وجبة الغداء.. بعد صلاة الظهر التى حانت تقريباً.

تسمع زوجة الابن الشابة صراخ رضيعها

المتواصل .. المختلط بنداءات الجدة تدعوها لترك ما بيدها.. وأن تأتى من فورها للصغير.. فتهرول مسرعة لتلبى تلك الدعوات المتتالية.. تلتقط صغيرها بلهفة من حجرها .

بينما تناولها الجدة الصغير سمعتا انفجاراً مدوياً بإحدى درجات السلم الخرسانى بجانبهما.. هرعتا إلى الشارع مذعورتين.. تمسك كل منهما طرفاً من الصغير.. وقبالة المنزل وقفتا مذهولتين ترقبان مع الجيران مع مايحدث.. مال البيت المكون من ثلاثة طوابق مترين إلى الأمام .. ثم إلى الخلف .. ثم هبط الدور الثانى ليحل محل الدور الأول الذى ابتلعته الأرض عن آخره بكل ما فيه من أثاث فى لحظات.

انتاب الجميع حالة من الفزع الشديد.. وقبل أن يفيقوا كانوا قد قرروا ترك منازلهم المجاورة فى التو ودون أن يحددوا المأوى البديل.

ظل الجميع يرقب فى ذهول ما قد يطرأ من تداعيات.. وتوافدت جموع الناس من القرى المجاورة فور سماعهم هذا الحدث العجيب الذى انتشر خبره بسرعة البرق.

بينما انتشرت قوات الأمن حول المنزل .. وتوالت اللجان الفنية للمعاينة .. من جهات معلومة وأخرى مجهولة.. وثالثة بين بين..

وأخذ مندبو ومراسلو الصحف يدسون أنفهم فى كل الأمور.. حتى التى لا تتعلق بالحادث مطلقا.. فى حين انزوى مندوب جريدة معارضة بمجموعة ممن توسم فيهم الحماس اللامبرر لأية قضية.

« كله من الحكومة .. لو كان المواطن يهمها فعلا كانت تعمل كشف دورى على المنازل لتلافى مثل هذه الكوارث.. لكن المواطن أرخص شىء فى هذا البلد» همس المندوب المعارض فى شبه وشوشة.

« والله عندك حق يا أستاذ.. مفيش أرخص من كده» رد أحد المتاخمين مؤازراً بنفس الوشوشة.

فى حين تبدى شاب ساذج يزعم أنه صحفى .. ويتباهى ببطاقة انتمائه لجريدة إقليمية صفراء.. ولا يعلم أنه لو أظهرها ..لكانت قائده إلى السجن من أوسع أبوابه.

وفى صورة كاريكاتورية.. التصق كل مندوب من الصحف القومية بمسئول ما.. يدون تصريحاته.. واستجابته الفورية لحظة معرفته بالحادث.. بينما لازمت محررة الحوادث .. بصحيفة قومية كبيرة الضباط الموجودين بالمكان.. أسرعت تلملم صور كبارهم.. لترصها فيما بعد جنبا إلى جنب على صفحة جريدتها.. وإلى جوارها أو فوقها أو تحتها أحلى كلام.

اكتظ المكان بالناس.. وضج طيلة الوقت بالتخمينات.. والتحليلات.. ومصمصة الشفاة.. تداخل اللغط وتمازجت الهمهمات.. فتعالى ما يشبه ترنيمات فرعونية فى طقس غير مفهوم.

خمن بعضهم أنه قد يكون بفعل الجن.. فى حين رفض البعض الآخر هذا القول.. واعتبروه تخاريف سذج ومجاذيب.. وجزمت طائفة بأن البيت قديم جداً.. وأكدت أخرى بأنه بنى بطريقة خاطئة.. بينما لم يُجد تأكيد الجيران المقربين بأن البيت حديث البناء.. وليس به أية عيوب فنية.. وأرجأ البعض سبب النحس إلى رقم ثلاثة.. فى حين ردت الأغلبية السبب.. إلى غضبة مفاجئة من الأرض على أصحابها.

«وهل تغضب الأرض؟ ربما.. ولَمَ لا؟ مؤكد عندما لا يعجبها حال مَن فوقها» هكذا تساءل نفر.. وهكذا برر آخرون.

تنبهت الأم التى تكومت منهكة الذهن.. خائرة القوى إلى جوار جدار قريب.. تتابع ما آل إليه حال بيتها.. ومن حولها الجارات يهدئن من روعها.

« بنتى .. بنتى!!» تصرخ المرأة بلا انقطاع.



(٧)

روبيتا

الحرارة القائظة التى تكاد تصهر الدنيا بما فيها.. جعلت الأم تنادى طفلها فى تأكيد وحزم.. تحذره من الخروج إلى الشارع فى هذا الجو الملتهب.. وفى رضوخ المغلوب على أمره.. ولأن الدنيا بالفعل نار استجاب الطفل دون نقاش.

تسلق الطفل سور الشرفة الفسيحة.. جعل يتخطى الأعمدة الخرسانية الواحد تلو الآخر.. ويعيد الكرة مرات..شعر أن الأعمدة كتلة من اللهب بين يديه الصغيرتين المعروقتين.. وأن السور الحجرى يتصبب عرقاً ..تحت قدميه كما يتصبب جسمه الصغير.. توقف عن لعبه فجأة.. جلس فى حركة لا إرادية على السور النارى.. مد رجليه نحو الأرض.. قفز فى تروٍ وحرص.. تسمرت قدماه إلى جوار شىء ما ..لم يكن موجوداً

حين تسلق السور قبل قليـل ..ارتعـدت فـرائص الصـغير وانحـبس صوته لبرهة..هرع نحو أمه مذعوراً.. يصرخ دون انقطاع.

« مالك ياحمادة .. فيه ايه يا بابا» قالت الأم مندهشة.

« تِعبان يا ماما .. تِعبان كبير!» جعل الطفل يقول لاهثاً.

خرجت الأم الريفية الشابة.. التى تخطـو فـوق عامهـا الخـامس والعشرين.. وبهدوء مريب داعبت الحية.. الرابضة إلى جوار السـور من الداخل..غافلتها ودقت رأسها بحجر ثقيل.. لكن دون أن تهشـم الرأس تماما.. تأكدت أن الثعبان وهـو مـن نـوع الكـوبرا قـد فـارق الحياة..أخذت تلهو به وتطوحه فى الهواء يميناً وشمالاً.. تفرده عـلى الأرض حيناً.. وترفعه إلى مستوى رأسها حيناً آخر.. والطفل يرقبهـا فى ذهول.

لاحت للأم فكرة طالما ألحت بها من قبل.. لكنها هذه المرة رأتها فكرة رائعة.. التفتت إلى الابن المتقنفذ المرتعد على بُعـد خطـوات.. مؤكدة أن الثعبان أصبح جثة هامدة ولا يستطيع أن يؤذيه.

حملـت الأم الثعبـان الكبيـر فـوق راحتيهـا.. مشـت بتـؤدة إلى الداخل.. وضعته فى ركن رطيب من حجرة خاليـة فى أعمـاق البيـت الريفى الكبير.

هرولت مسرعة إلى الحقل تلفحها شمس الهاجرة دون اكتراث.. اقتلعت بعض النباتات الغريبة.. التى لا يعرف الناس لها فائدة ..ويسمونها أعشاب شيطانية.. ثم عادت من فورها.

وفى الحجرة الخالية إلا من الثعبان ..بأعماق البيت الريفى الكبير.. جلست تعصر النباتات ..وتمزجها مع بعض المواد الأخرى البسيطة.. الموجودة فى كل بيت ..ومنها ما لا يصلح الطعام إلا به.. ومنها أعشاب تستخدم بصورة شبه دائمة فى الحياه اليومية.. وبعد وقت ليس باليسير.. انتهت الأم من تنفيذ فكرتها الرائعة.

كانت المرة الأولى التى يرى حمادة فيها أمه.. الريفية البسيطة تجلس هذه الجلسة.. كأنها شخصية أخرى تماما ..صَعُبَ على عقل الصغير وقتها تحديدها.. أو استيعاب مفهومها.. أرعبته الأفكار.. تهيأ له أنها ليست أمه.. وأنها إحدى الجنيات من تحت الأرض تسكن هذه الحجرة المنزوية.

انهالت على خياله الغض أشباح العفاريت.. التى كانت تظهر فجأة للناس فى الزمن البائد.. وعرائس البحر اللاتى يعشقن رجال الأنس.. ويرغمنهم على الزواج بهن.. واجترت ذاكرته المشوشة حكايات جدته الكثيرة عنهن.. وتربعت على عرش مخزون حكاياته الهش.. حكاية الجد سرحان.. الذى ظهرت له الجنية فى ليلة

قمراء.. عند الساقية .. وهو يروى الحقل.. وقالوا أنها تزوجته بعد ذلك.

لَمَ لا تكون أمه واحدة منهن؟ فكر ملياً.

غريبة هى دائماً.. فى لبسها.. طريقة أكلها.. تصرفاتها.. حتى أصناف الطعام التى تعدها..تكاد تكون علاقتها بالجيران معدومة.. لا تشعر بالألفة ولا بالتفاهم مع أحد.. أياً كان ومهما كان..حتى زوجها كأنه غريب عنها.. ظلت نافرة منه حتى ملها ومل الحياة معها فهجر البلدة والوطن.

« يااااه الوقت سرقنى.. بس عملت اللى نفسى اعمله من زمان» نهضت هامسة.

« ماما ماما.. انتى بتكلمى نفسك؟!» صاح الولد.

« انت هنا يا حبيبى.. تعالى شوف ماما عملت ايه.. انا حنطت التعبان عشان متخافش منه؟!» قالتها منتشية.

ولم يفهم الصغير معنى الكلام .. لكنه على أية حال ظل على عناده وفزعه.. وأسرع يعدو نحو الخارج.

لم يكن الخروج من البيت بأكمله كافياً بالنسبة للولد .. لكنه أخذ يجرى ويجرى..يطوى الأرض وتطويه.. لم يأبه بالنار التى تضطرم فى

أعماقه رغم أن الشمس بدأت تلملم سياطها الحامية استعداداً للرحيل.

تنبه قليلاً ليجد نفسه فى بيت الجد بقرية مجاورة.. وقد تملكته تلك الفكرة المجنونة التى احتلت خاطره منذ قليل .. عن الجن والعفاريت .. وأمه التى ربما تكون واحدة منهم.. سقط مغشياً عليه.. وعندما أفاق كان قد أيقن تماماً ..أن أمه لابد جنية من تحت الأرض.

روى الصغير روايته للجد والجدة والأعمام بأنفاس متقطعة لاهثة.. نام بلا إرادة فى حضن الجدة الحنون وعلى شفتيه بقايا كلام.. وبين الفينة والأخرى ينتفض مفزوعاً.. متمتماً بكلمات متداخلة.. وأحرف مهروسة عن الثعبان.. والعفاريت وأمه الجنية.. بينما دار الحديث همساً بين الجلوس.

تفرق الجمع بينما ظل الصغير يعانى نوبات الفزع .. والتمتمة المتلاحقة التى تنغص عليه نومه.. فجأة استيقظ صارخاً.. تشبث بالجدة بقوة.. جعل يبكى ويتوسل إليها ألا تعيده لأمه الجنية مرة أخرى.. والجدة تهدئ من روعه .. وتطرد عن مخيلته تلك الأفكار الخبيثة.. وتؤكد له أن أمه إنسانة مثلهم ..وأنها طيبة وتحبه جداً.

« لا يا جدتى.. انا شفتها على حقيقتها ..فى الاوضة الفاضية.. اللى

فى آخر البيت.. كان شكلها غريب.. انـا خـايف منهـا .. مـش عـاوز اروح هناك تانى» قال الولد مرتعداً.

حارت الجدة ماذا تفعل .. هى على يقين بأن الولد على حق.. فأمه مريبة بالفعل.. لكنها أمه على أية حال.

ثلاث ليالٍ خلت على غياب الطفل.. شعرت فيهـا الأم بـأن عبئـاً ثقيلاً انزاح من على عاتقها.. مالها هى والأطفال؟ مالها والمسئولية؟ مالها وتلك الهوامش البشرية حولها؟ مالها وهذا العصر بأكمله؟!

هل تحب هذه المرأة ذلك الطفل؟ سؤال تطرحـه عـلى نفسـها فى كل حين.. شىء ما يربطها به.. تحبه أحياناً.. وتثور على ذلك الربـاط أحيانا أخرى.. فهو ليس عـلى شـاكلتها.. لا طبعهـا ولا ملامحهـا.. حتى اسمه غريب عليها.. ودت لو أسمته « رام».. لكن الرجل الذى كان موجوداً لفترة قريبة فى حياتها.. أصر على ذلـك الاسـم الـذى لا تعرف كيف دخل قائمة الأسماء ولا تدرك معناه.. هو لديها بلا معنى .. كما أن «رام» هذا لدينا الآن.. لا شىء فى الظاهر يربطها بالصـبى غير ذلك الرباط الخفى الذى يعلمه كل الناس إلا هى .

حاولت مراراً التغاضى عن اسمه.. جاهـدت أن تجعـل منـه ذاك الطفل الذى تريده وترتضيه طفلاً لها.. بيـد أن الصـغير لم يُـرد إلا أن يكون «حمادة» .. لم يُرد إلا أن يكون طفلاً عادياً ينتمى إلى هذا العصر

بكل منغصاته وأزماته.

عانى الطفل كثيراً من شراستها فى تحويله إلى مسخ لآخر فى مخيلتها.. لا يمت إليه بصلة ولا لعصره الذى وجد فيه.. ولا حتى لعصور كثيرة ممتدة تسبقه.. وعانت هى الأخرى من فشلها فى مهمتها .. ورعايتها لطفل غريب عنها وعن تكوينها وزمانها ومكانها.. كما تعبت من تمثيل دور الأم الذى لا تحسه.. ولا يلمس أوتار قلبها ومشاعرها.. وملت كلمات الحب الزائفة التى كانت تمطره بها لحظات توهمها الرضا.

اتفرغ لنفسى بقى.. كفاية كده« قالتها المرأة لنفسها وهى تمط شفتها السفلى وتمد عنقها إلى الأمام غير مبالية بشىء.

توالت الأيام على المرأة وهى مرتاحة لغياب الطفل لدى أسرة أبيه.. راقت لها فكرة التحنيط أكثر .. فكرت أن تعيد الكرة مع مخلوق آخر..لكن ماذا تختار؟ بدت متحيرة.. بطة أم أوزة أم عنزة؟ هى لا تملك ثمن العنزة.. هى تريد مخلوقا لطيفا ولا يكون مكلفا.

« ماذا يكون المحنط القادم؟ البطة .. نعم هى البطة» جلست تتمتم فى نفسها.

إنها محنطة بإتقان .. كأنها مازالت على قيد الحياة.. من أين أتتها هذه المهارة فى هذا العلم؟ كيف اكتشفت موادة ولم يزل سره يحير

علماء الأرض؟

لغز هى محير.. فمن هى؟ لا أحد يدرى غير أنها امرأة ريفية بسيطة تخطو فوق عامها الخامس والعشرين .. هجرها زوجها ملالة وانسل الابن خلفه مقتفياً آثاره.

مرت أيام كثيرة أخرى.. هبت بأعماق المرأة رياحاً باردة.. حملت لها بعض الحنين للصغير.. تمنت لو يدخل عليها الآن.. تضع له طعاماً يتمرد عليه ويدق رجله بالأرض.. أوحشتها البراءة فى وجهه وأفعاله.

قطع عليها أمنياتها فجأة صوت ما .. طرقات طفولية غير منتظمة على الباب تصدر عن يد دقيقة.. تهيأ لها أنه أتى ملبياً فى التو.. وغاضت كل أمنياتها وتهيؤاتها بمجرد أن فتحت الباب.

« ادخلى يا سلمى.. تعالى يا حبيبتى» قالت وهى تبتلع ريقها.

« قطتى وقعت من السطح عندكم فى البيت» قالت الصغيرة باكية.

أشارت إليها بأن تأخذها من الداخل متمنية للقطة السلامة.. غابت البنت بين الغرف والدهاليز الممتدة عبر البيت الكبير.. ثم عادت منفطرة من البكاء.

تناست المرأة كل شىء.. لم يعد يشغلها الآن سوى حكاية سلمى

بنت الجيران والقطة التى ماتت.. قررت بينها وبين نفسها أنها ستكون المحنط القادم.

« كفاية عياط بقى يا سلمى.. خلى القطة وروحى انتى دلوقت يا حبيبتى .. وتعالى بعدين ليكى هدية حلوة عندى» قالت المرأة وهى تربت على ظهر الصغيرة المنتحبة.. ثم دخلت تلك الحجرة بأعماق البيت الريفى الكبير.

ذاعت قصة سلمى وقطتها فى البلدة والقرى المجاورة.. توافد الأطفال على المرأة.. لتمنحهم فرصة الاحتفاظ بحيواناتهم وطيورهم ..التى يحبونها ولم يكتب لها العمر الطويل.

بلغت سعادة المرأة بهذا العمل غايتها.. أخيراً اهتدت إلى ذاتها التائهة.. هى الآن راضية تماما عن وجودها.. لم تعد تذكر شيئاً عن منغصاتها مطلقاً ..وهى تقوم بهذا العمل للأطفال .. وللجارات أيضاً بغرض تزيين بيوتهن المتواضعة.. بهذه المخلوقات المحنطة.

وجدت المرأة السلوى والعزاء عن غربتها فى هذا العالم.. لم تكن طامحة لأى شيء من وراء هذا العمل سوى تلك الراحة النفسية العظيمة التى تشعر بها وهى تقوم به.

وبمرور الزمن وتعاقب السنين.. تضاءلت الأحداث وتلاشت آثارها.. تقازمت الأخبار وانتفى تأثيرها.. انطمست دروب أدمت

قدماها زمناً طويلاً.. وانمحت شخوص وحوادث من ذاكرتها.. وشيئا شيئاً جلب لها هذا العمل أموالاً كثيرة.. تبرعت بها مع كر السنين أولاً بأول لأوجه الخير.. إلا ما يكفى حاجتها الضرورية فقط.

وإلى جانب هذا كان لها شطحاتها المثيرة للدهشة والتساؤل.. فهى عليمة بكل شىء.. تفسر كل الظواهر وتفك كل الطلاسم.. حتى تلك المنقوشة على الأحجار العتيقة المنحدرة من عصور سحيقة.. تصف الأدوية وتعالج الأمور المختلفة بحكمة غير معهودة.. لديها الحل لكل المحن والأزمات التى تمر بها البلاد.. تتكلم فى السياسة.. الطب.. علم النفس.. المنطق.. الفلسفة.. الاقتصاد.. الفن.

تنقش ببراعة تلك النقوش الفرعونية الموجودة على جدران المعابد والمقابر.. تزين بها الحوائط والأشياء لديها.. تصنع تماثيلا صغيرة من المواد المختلفة بدقة الفنان المصرى القديم.

تعشق الشعر وترتجله فى كل حين.. وتذوب عشقا لمصر.. ثراها.. نيلها.. شمسها.. هواها.

« لا أحد يعرف مصر أو يحبها مثلى!» تقول فى كل لحظة.

مضى الشباب بالمرأة وئيداً إلى الكهولة.. ومنها سريعاً إلى

الشيخوخة.. وأسرع إلى ما يشبه الخرف .

ضمر جسمها حتى صار مثل عود القصب الممصوص.. ولم تزل غريبة كما هى منذ أن عرفها الناس ودرجت بينهم.

تناقل الناس لسنوات بعدها قصة فاطمة..تلك المرأة الريفية التى عاشت وماتت دون أن يعلم أحد على وجه الدقة حكايتها..وبجوفها سر دامت على مر الأيام تحتضنه..حقيقة باتت تسكنها..إيمان كامل عاش العمر يغمرها.. هاتف يناديها ويسمعها ..صورة ترتسم أمام عينيها فى وضح النهار جلية.. ملكة فرعونية كانت تحكم الوجه البحرى فى زمن مضى اسمها روبيتا.



(٨)

عندما يجف النوار

كانت مفاجأة مذهلة عندما رأته وهى مارة بجوار مسجد الإمام الحسين بالمصادفة.. تسمرت قدمها.. لم تصدق عينيها عندما عكست لها صورته.. لكنها تعرفه جيداً.. تغير مظهره العام كثيرا.. لكن ملامحه نفس الملامح لم تزل.. غريب الأطوار هو الآن حقاً.. لكنه هو .. لا يمكن أن تكون مخطئة.

يرتدى جلباباً أبيض وعمامة خضراء.. يمسك بيده مسبحة طويلة بها حبات كثيرة .. يتمتم بكلمات غير مفهومة.. كأنه شخص آخر تماما غير الذى تعرفه.. لكنه هو.

« أستاذى.. أستاذى» اقتربت حثيثا ولم تجد منه رداً أو اهتماماً. روادها إحساس للحظة بأنها قد

تكون مخطئة بالفعل.. اتهمت ذاكرتها بالوهن والخرف.. حاولت أن تعبره وتتناسى الأمر.. لكنها فى نفس اللحظة عادت مصرة أكثر من ذى قبل أنه هو.

« أستاذى» همست من جديد.

« تقصدينني يا ابنتى؟» التفت إليها فى هدوء شديد.

غزتها فرحة عارمة ممزوجة بحزن عميق.. الصوت هو الصوت.. لكن ماذا جرى؟

«نعم أقصدك أستاذى محمود» لملمت شتات نفسها هامسة.

« أنا عبد الله يا ابنتى».

« ألست الأستاذ محمود الصحفى الكبير والأديب المبدع؟» تغيرت ملامحها متسائلة.

« سامحك الله يا ابنتى.. الكبير هو الله.. والمبدع هو الله» قال مستنكراً.

« بل أنت هو.. أنا متأكدة» قالت مصرة بحزم.

« وهل فى الدنيا حقيقة واحدة أكيدة سوى الموت .. وهل أنت متأكدة من ذاتك ؟ هل أنت أنت حقاً؟ أم أنك غيرك؟» قال مطأطأ رأسه فى خضوع وانكسار لم يكن يعرفه من قبل.

هز رأسه وتمتم بكلمات لم تفهمها.. وهمَّ بتحويل وجهته راجياً إياها أن تدعه وشأنه.. فلا حاجة له بتلك المهاترات التى لم يعد يتسع صدره لها.. مكرراً دعاءه لها بالهداية مرات.

انصرف تاركا مشاعرها مذبوحة.. تئن بين جوانحها الآهات.. تجول بخاطرها السنين.. عادت بها الذكريات إلى الوراء كثيراً.. أيام كانت طالبة بالثانوية العامة بالبلدة الصغيرة.. كان يخطو أولى خطواته على طريق النجاح والشهرة .. بعد أن ترك البلدة ورحل إلى معشوقته قاهرة المعز.. وجهة كل أبناء الأقاليم الموهوبين.

لم يكن الفارق بينهما فى السن يتعدى السنوات العشر.. جمعهما عشق الصحافة والأدب.. والإيمان بنفس القضايا والمبادىء.. قرأت كل ما كان يكتبه.. واحتفظت بكل أعداد الجريدة التى تحترمها وتقدس رسالتها.. والتى تمنت أن تعمل بها بعد تخرجها.

تدربت تحت إشرافه فى نفس الجريدة أثناء دراستها بالكلية.. لكن القدر لم يسمح لها بتحقيق بقية الأمنية الغالية.

عملت بجريدة منشأة حديثاً صارت قلعة صحفية بمرور الوقت.. كان أول موضوع لها فى تلك الجريدة هو حوار معه بمناسبة حصول روايته الأولى على جائزة أدبية رفيعة.

حوار وصفه الجميع بأنه رائع.. لفت أنظار القراء إليها.. وكان

سبباً فى إرساء قواعدها بتلك الجريدة الجديدة.

شعرت بدمعات ملتهبة تلسع خديها.. شعلة حماس هو كان.. تمنت لو تصبح شرارة واحدة منها.. زهرة دائمة العبير والرونق.

تنبهت وإذا به قد تبخر من المكان.. وكل المخزون الشعورى لديها يؤكد أنه هو.. كل التفاهم والتواصل الروحى يصرخ «هو».. كل الروابط الإنسانية النبيلة تنادى من أعماق سحيقة « هو».

«كيف هانت عليه نفسه؟ كيف هانت رسالته السامية التى ترك بلدتنا الجميلة من أجلها؟ كيف خمدت به شعلة الحماس؟ كيف خبا وهج الإبداع؟ كادت تفتك بأعصابها الحيرة والتساؤلات.

« نحن لم نُخلق عبثاً.. لابد أن هناك ما خُلقنا من أجله..وليس أعظم من أن يحدد المرء هدفاً يسعى جاهداً لتحقيقه.. وينتمى لشىء يموت لأجله.. وإلا فما جدوى الحياة إذن؟!» طنت بأذنها تلك الكلمات التى قالها فى ذلك الحوار البعيد وارتفع رجعها لدرجة لم تعد تحتملها.. بينما تدور بقية الحوار غير مرتبة فى مخيلتها.

تذكرت آخر مرة حدثته فيها وكانت عبر الهاتف.. كان وقتها بصدد الانتهاء من روايته الجديدة.. وكان عام مضى على إغلاق الجريدة التى كان يؤدى رسالته من خلال منبرها.. كان محبطاً جداً.. حزيناً جداً.

حزن من نوع غريب لم تألفه فيه أبداً.. حتى عندما سجن كان يبدو

سعيداً راضيا عن تلك الضريبة التى يدفعها فى سبيل إيمانه بمبادئه.

لم يكن وقف الجريدة عن الصدور هو قضيته بقدر ما تساءل لمَ؟

لمَ تُصادر صحيفة؟ لمَ تقصف أقلام؟ لم تعطل طاقات؟ لمَ تُكتم أصوات؟!

لم يقبل عرضاً واحدا من العروض التى انهالت عليه لصالح صحف أخرى.. اعتزل الصحافة واعتزل الناس.. اعتزل كل شئ فى الحياة حتى القلم والأوراق.

مزق كل أعماله الأدبية التى فى طور النضج .. ليبقى رصيده الأدبى متوقفاً على رواية وحيدة ومجموعة قصصية وحيدة أيضاً.

مر وقت طويل بعدها ولمحته بالمصادفة فى إحدى الندوات الأدبية.. لكنها لم تحادثه طويلاً لانشغالها فى تغطية الندوة.. وذاب كل منهما وسط الزحام بمجرد تبادل السلام والتساؤلات السريعة عن الصحة والأحوال.

علمت من زميل لها حضر الندوة منذ البداية أنه تم مناقشة روايته ضمن الأعمال تحت الطبع.. وتنبأ المتحدثون أنها ستكون حدثاً مميزاً له صداه الواسع فى الأوساط الأدبية.. فهى تأريخ أدبى راقٍ لفترة مهمة جداً من تاريخ الوطن الحديث.

أخذتها دوامة الحياة.. ونسيت هذا اليوم كما نسيت أياماً وأناساً وأشياء كثيرة .. الآن فقط تذكرت كل شئ.

« ولكن ماذا حدث؟ هل مُنعت روايته من النشر؟ هل صودرت؟ هكذا فى الخفاء دون أن يعلم احد؟ هل هذا ممكن؟» تساءلت فى نفسها دون أن تحظى بإجابة.

الإجابة لديه فقط.. ولكن أين ذهب؟!

تلفتت حولها فى كل اتجاه.. اصطدمت عيناها على بُعد أمتار قليلة بهيئته .. كان قد انضم إلى جماعة من الدراويش يلبسون نفس الجلباب ويمسكون ذات المسبحة.. تحلق الجمع وعلا ضجيجه منذ فترة.. لكنها لم تفطن لهم.

أخذ الجميع يصفق ويطيح برأسه فى الهواء يميناً ويساراً.. يرددون كلمات وأشعاراً غريبة.

وجدت نفسها غارقة فى بحر اللاجدوى.. لم يكن أمامها إلا المضى إلى حيث كانت تريد قبل أن تقع عينها عليه.. وبخطوات كسيحة بدأت تبتعد عن المكان .. وفى ذهنها تدور أحداث روايته الوحيدة « أرض الله» .. تتجسد أمام عينيها صورة بطلها الفيلسوف المثقف.. الذى انتهى به المطاف إلى مجذوب يركب حصاناً من الحطب.. ويدور هائماً على وجهه فى البلاد.

(٩)

شتاء بارد جداً

الرياح تعصف بأوراق الشجر.. وبقايا مناديل ورقية.. خلَّفها على الرصيف غير الحريصين على نظافة مدينتهم.

الغمام الكثيف القاتم يغطى لجُة السماء.. إلا فراغات قليلة شاحبة.. حتى إنه لم يدرِ برحيل الشمس المحتجبة .. إلا عندما ترامى إلى مسامعه آذان المغرب.

كان يمضى بلا هدى..أو هدف محدد.. إلا أنه يعشق كورنيش النيل.. وبخاصة فى هذا الوقت من النهار.. يسترق بعض الوقت.. المشحون بالعمل على الدوام .. يمارس هواية غريبة ..مثله تماماً.. لكنها محببة لديه منذ زمن طويل .. وبمجرد خروجه من مكتبه ..ينعزل كليةً عن كل شىء..أى

شىء يذكره بالعمل.. فقط هذا الوقت لممارسة هوايته الاثيرة .. الشرود مشياً.

لم تشغله حالة الجو غير المستقرة طوال اليوم.. والتى أسفرت عن يوم سىء جدا بكل المقاييس.. وبوادرها التى تنبىء بليلة ليلاء.. مطيرة.. قارسة.

إلا أنه تذكر للحظة زجاج نافذة غرفة نومه المكسور.. وكان لا يتذكر ذلك إلا عندما يأوى إلى فراشه فى الهزيع الأخير من الليل .. فيسب استهتاره ويلعن فوضويته.. وهو يحكم إلصاق ورقة الجريدة على الجزء المكسور.

انقضى الشهر الأخير من الشتاء الماضى .. وهو يفعل ذلك كل ليلة.. ويقسم أن أول شىء يفعله فى الصباح .. هو استبدال هذا الزجاج المكسور.

ويعود إلى فراشه فى الهزيع الأخير من الليل.. يسب استهتاره ويلعن فوضويته.. وهو يحكم إلصاق ورقة الجريدة على الجزء المكسور.

لا يدرى لَمَ يتجسد أمام عينيه هذا المشهد الآن.. لكنه ضحك بفتور.. وتجاوزه سريعاً إلى لاشىء.

فجأة فُتح باب سيارة فارهة.. كانت قد أبطأت منذ لحظات بينما هو غارقٌ فى شروده.. دُفع بقوة داخلها بين رجلين عملاقين.. وأمام مبنى يعرفه جيداً توقفت السيارة.. حمله الرجلين من الجانبين بـنفس القوة التى دفعاه بها داخل السيارة.

وفى مكتب تشبه ديكوراته السحر.. ويقـارب جـوه تلـك العـوالم الأسطورية ..التى يسمع عنها فى حكايات ألـف ليلـة وليلـة.. وجـد نفسه فى مواجهة معه.

تقدم إليه صاحب هذا الهيل والهيلمان بضع خطوات.. تاركاً من فوره مجلسه على مكتبه الوثير.. بدا مبتسماً « أهلاً بالصحفى الهمام» قالها ماداً يده للمصافحة.

- لا أضع يدى فى يد وضعت فى يد الصهاينة.

- سياسة يا أبو صلاح.

- آسف يا سيادة النائب!

« مد يدك يا رجل .. لا تكن صعيدياً » قالها النائب ممازحاً.. لكن الصحفى صعيدى الأصل ظل مصراً على عدم المصافحة.

« أهون علىّ قطع يدى من أن توضع فى يدك » قالها جاداً مقطبـاً .. ثم أردف بنبرة أكثر جدية وصرامة « ندخل فى الموضوع أفضل»...

كظم النائب غيظه.. وحجب زفرةً كادت تخرج رغماً عنه.. قال مراوغاً:

- لا موضوع ولا غيره.. فقط أردت أن أراك يا رجل

- بهذه الطريقة؟!

- دعوتك مراراً ولم تُجب.. قلت أداعبك

- مداعبة مقبولة .. أية أوامر أخرى ؟!

- لَم كل هذه الحدة يا أبو صلاح؟ علمى عنك أنك لطيف ومرح.

- فى أى شىء إلا مبادئى وحق وطنى يا سيادة النائب

جعل النائب يحكم لجام غضبه .. ويكبح جماح ضجره.. حتى لا يفسد المقابلة .. التى قد تسفر عن هدنة ولو مؤقتة.. يكتشف من خلالها مدخلاً لهذا الصحفى.. الذى ينبش تحت أقدامه.

- مبادؤك على العين والراس .. كل الحكاية أننى أود مساعدتك للحصول على شقة فخمة.. تليق بمكانتك يا بطل.

يصمت صلاح برهة ظنها النائب تفكيراً فى العرض.. ولم يهتم صلاح بما يدور فى خلده.. تذكر محاولاته السابقة لرشوته بشتى السبل.

اهترأت أحذية الوسطاء فاعلى الخير « سنخصص لـك إعلانـات قيمتها مئات الآلاف من الجنيهات.. ملايين إن أحببت».

وتمضى الأيام يتضخم العرض أكثر« سيساعدك الباشا فى امتلاك قطعـة أرض تعجـز عينـاك عـن مسـحها.. تـدخل بهـا فى قائمـة الحيتان»...

« ستجوب العالم مع الباشا».

عروض عظيمة لـولا أنـه فقـرى.. يبتسـم قلـيلاً . «أتعبتنـا يـا أخ صلاح .. هات ما عندك ..أحلامك أوامر.. فقط كن متعاوناً » قـالوا ضجرين بعدما يئسوا من جدوى الكلام.

دار كل هذا سريعا متلاحقاً فى خلده والنائب يحاول رشوته للمرة الألف.

عاد من صمته مهرولاً « اسمح لى بالانصراف»

- ليس قبل أن أقدم لك أية خدمة.

- صدقنى يا سيادة النائب .. ليس لى خدمات عندك.

- عموما أنا تحت أمرك فى أى وقت..وأى شـخص مـن طرفـك سيلقى نفس الاهتمام

مضى الشاب الصعيدى .. نحيف الجسم..أنيـق المظهـر..فـارع

الطول.. بملاحة ممزوجة برجولة وحزم تكـاد تنطـق بهمـا قسـمات وجهه المصرى الاصيل.

تقدم بخطى سريعة نحو باب المكتـب.. ابتلعتـه طرقـة طويلـة.. مُفضية لصالة كبيرة مخصصة للاستقبال قطعها فى لحظـات.. اسـرع مارقاً من الباب الرئيسى للمبنى.. متناسياً كل ما قيل وكل ما كان.

صباح قلق مثل كل صباحاته منذ أن بـدأ الصـحفى صـلاح عبـد العزيز حملته الصحفية ضد ممارساته المريبة.. لم تعـد قهـوة الصـباح السادة ذات نفعٍ.. ولا أقراص الأسبرين.. مع هـذا الصـداع الكـامن برأسه منذ شهور.. لم تعد الحياة كلها ذات لون.. أو طعم منـذ ذلـك الحين.

فتح الجريدة على تخوف حديث العهد بذاته المتعجرفـة .. نـدت عنه زفرة ملتهبة كادت تحرق الجريدة فى يده.

لم يطق صبراً على قراءة الكلام المكتوب عنه.. صاح بهيـاج وهـو يقذفها فى وجه مدير مكتبه «هاتولى الزفت ده»

للمرة الثانية خلال أسبوع يجد صلاح نفسه فى مكتب النائب إيـاه رغماً عنه.

لم يختلـف اسـتقبال النائـب لـه كثيـراً.. لكنـه قـرأ فى عينيـه شـراً

مسطيراً.. إن لم يستجب له هذه المرة.. التى وقر فى يقينه أنها الفرصة الأخيرة.

- يا صلاح .. يا ابنى .. لماذا تريد تشويه سمعتى؟ هل آذيتك فى شىء؟

- بل قتلتنى مرات!

- كيف؟ قل لى وسأفعل أى شىء من أجل تصحيح الخطأ .. وفوراً.

- ليتك تفعل!!

- سأفعل..سأفعل.. أقسم بشرفى!

- الصهاينة.

- تانى؟

- وتالت.. ورابع.. ومليون.. وإلى مالانهاية.

- يا ابنى .. يا ابنى افهم.. هذا شغل.. شغل.. شغل.

- هلاك الناس الذين أولوك ثقتهم وأعطوك أصواتهم شغل يا سيادة النائب ؟ تدمير الاقتصاد القومى شغل؟ اليهود الذين تأتى بهم لمزارعك الشاسعة التى هى عماد هذا الاقتصاد شغل؟ الأدوية

والمبيدات المسرطنة.. الأمصال الملوثة بالاشعاعات والفيروسات المهلكة شغل؟!

- يا ابنى .. يا ابنى افهم وارحمنى ..هؤلاء الناس متقدمون جداً فى الزراعة.. ونحن نستفيد خبراتهم وتقدمهم هذا.

- وهل عقمت البلد يا سيادة النائب المحترم؟ لدينا أكفأ الخبرات فى كل المجالات .. لكن أمثالك يضطرونهم إلى النفاد بعلمهم وجلدهم إلى الخارج.. أو القنوع بالحسرة وخيبة الأمل.

نفد صبر النائب.. وفقد السيطرة على أعصابه ..صاح بلا وعى « أتعبتنى يا زفت انت.. اسمع ودعك من هذه المهاترات الغبية.. كلمة واحدة لن أكررها.. ابعد عن سكتى وإلا...»

بهذه الجملة الأخيرة اتضحت الرؤية.. وصل الغضب بالنائب ذروته وارتبك كل شىء.

« لا يأخذ الروح إلا خالقها» تمتم صلاح وهو يغادر المكتب.

ساد التوتر جو المكتب طويلاً.. والنائب ينفث دخان السيجار بطريقة عشوائية مضطربة « الحق علىّ أنا .. صبرت عليه طويلاً.. ما كان يجب أن أفعل هذا» نادى حاشيته: «تصرفوا».

تناسى صلاح كعادته.. كل ما كان وكل ما قيل.. بمجرد خروجه

من المبنى.. حتى ذلك التهديد الصريح.

جعل يرتب مستنداته الخطيرة .. التى حصل عليها من مصادر سرية جديدة.

بدأ يعد تحقيقه القادم للنشر بالوثائق والمستندات.. والذى سيكون المسمار الأخير فى نعش النائب..خائن الوطن.

شعر بدوار عارض .. تذكر أنه لم يأكل شيئاً طوال اليوم.. طوى أوراقه وهبَّ واقفاً « مجنون يا ابو صلاح» حدَّث نفسه وهو ينظر فى ساعته مكتشفاً أنها قاربت الواحدة صباحاً.

أغلق خلفه باب مكتبه بالجريدة وهو يتمتم بينه وبين نفسه « سخيف أن يتحمل الرجل مسئولية مأكله ومشربه.

يضحك متهكماً « وغسيل الأطباق .. والملابس.. والبلاط أحياناً ».

هل نسى نفسه إلى هذه الدرجة؟ صحيح هو لا يهتم بعمل أعياد الميلاد.. ولا يُذّكّره أحد بأعوامه .. التى تفر من عمره الواحد تلو الآخر فى سرعة رهيبة.

لكنه تذكر فجأة سنة مولده.. ياااه.. لقد تخطى الأربعين منذ ثلاث سنوات وهو لا يدرى.. هكذا؟ ما أسرع عدو الزمن حين

ينساه الإنسان.. إن لنفسه عليه حق.. لمَ يهمله؟ لا يدرى.

فرغم رومانسيته الخفية لايذكر مرة أنه أعجب بفتاه.. أو غازلها.. هو لايعشق إلا وطنه..وعمله.. لا يغازل سوى أوراقه.. لم يعـرف فى حياته قط إلا الكلام الجاد الموزون.

توقف تفكيره لحظة « لمَ لا أتزوج؟» فكرة لم تخطـر لـه ببـال مـن قبل.. قد يكون آن أوانها.. بل تأخر كثيراً.

هو ليس مغرما بالمرأة على أية حال.. لكنه فى هذه اللحظة تحديداً يفكر جدياً فى الارتباط.. قد يغير رأيه بعد لحظات.. أو عـلى الأكثـر بعد أن يتناول وجبـة جـاهزة.. خفيفـة جـداً.. يأخـذها مـن السـوبر ماركت وهو فى طريقه إلى السكن.

وقد ينسى أنه فكر فى هذا الأمر مطلقاً.. بعدما يسـب اسـتهتاره.. ويلعن فوضويته.. وهو يحكـم إلصـاق ورقـة الجريـدة عـلى الجـزء المكسور من زجاج نافذة غرفـة نومـه.. ويتمـتم وهـو يفـرد الغطـاء المكوم فى وسط السرير على جسده المقتول تعباً « أفضل مـا فى هـذه الحياة ألا يشاركك أحد سريرك».

انتحى جانباً إلى اليمين.. مندهشٌ هو وسعيد فى الوقت ذاته بفكره الجانح نحو الارتباط.. لأول مرة فى حياته.

فجأة وجد نفسه مدفوعاً كالقنبلة داخل السوبر ماركت.. الكـائن

على الناصية المقابلة لمسكنه.. وآخر ما علق بعينيه صورة سيارة منطلقة كالريح.. كانت تقصد فرمه وهو يعبر الشارع.

وكمن يحرص على قراءة الحظ كل صباح.. يحرص النائب على تفتيش جريدة المعارضة الأهم والأوسع انتشاراً صفحة صفحة عن موضوعات صلاح.. التى أصبحت وحدها تطير النوم من عينه.

« ترى ماذا فى جعبتك اليوم يا صعيدى يا....» يتمتم النائب وهو يقلب عينيه بين الصفحات فى عجل وارتباك.

وقبل أن يتم سبابه المعهود كلما أمسك بالجريدة.. جمدت الكلمات على لسانه.. كارثة لم تكن فى الحسبان.

« يا زفت أنت وهو» يصيح فى ذهول.

يدخل الأذناب مطأطئى الرؤوس كأنهم يساقون إلى حبل المشنقة.

« أغبياء .. أغبياء» يصرخ فيهم بلا وعى.. يحاول أحدهم الكلام.. لكنه لم يسمح له بنصف كلمة.. أطبق أصابع يمناه تاركاً السبابة « اليوم آخر فرصة لكم.. هيا أغربوا عن وجهى».

تهديد يعلمه كل واحد منهم كما يعرف أبناءه.. فالباشا وهم أعلم الناس به قرصته والقبر.

يختفي الجميع من أمامه فى سرعة البرق .. بينما هـو جـالس.. فى انتظار أن تستقر قدمه على الأرض.. وترتاح ساقه مـن تلـك الهـزات اللاإرادية العنيفة.. التى تكاد تذهب بعقله.

يتثاءب صلاح بعمق.. وهو يحاول أن يتنبه من نومه.. يهمـس فى نفسه « اللهم اجعله خير» .. يسرع نحـو البـاب الـذى يكـاد ينخلـع تحت أيـدى الطـارقين.. يـدور بذهنـه هـاجس مريـب عـن أسـرته بالبلدة.. وقبل أن يصل إلى الباب كان قد انفـتح عـلى مصـراعية مـن شدة اللكم والركل.

« كتفوه» يقول كبير الأذناب.

ينقلب المكان فى لحظات رأساً على عقب.

« انزعوا تلك الكمامة من على فيه» يزعق الكبير مرة أخرى.

« ليست هنا » قالها صلاح مبتسماً بسخرية.

«تعرف إذن» رد الآخر فى حنق.

-بالطبع.

- أين هى؟

لم يُجب صلاح وظل على سخريته مبتسماً.

« اقتلوه.. مزقوه إرباً إرباً .. ثم انسفوا بـه المكـان» صـاح الكبيـر هائجاً.

بدأ الأذناب يستعدون لتنفيذ الأمر.. بينما يخطو هو سـريعاً نحـو الباب.

تراجع بضعة خطـوات.. اقتـرب مـن صـلاح.. جعـل يتحسـس الحبال المحكمة حول جسده المقيد فى الكرسى « سأعطيك فرصـة أخيرة.. ولن أكرر سؤالى .. اين المستندات؟

« لِمَ لا أراوغهم .. نعم أحب أن أموت شهيداً .. بل أتمنى ذلك .. وأيضاً أحب أن أكشف مخططهم القذر وجريمتهم الشنعاء .. علىّ ان أحاول» فكر برهة.

همّ صلاح بالكلام فسبقه الآخر «هه.. تكلم.. تكلم ولا تخـف.. لن يمسَّك أحد بسوء.. أعدك بشرفى».

شرفك .. هىء.. تفوووه « همس صلاح خلسة.. ثم قـال مـاكراً « لقد وعدتنى».

« جرب » أسرع الآخر مطمئناً.

بدا صلاح متردداً.. ثم حزم أمره:

- بعد الغد.. ستصلكم المستندات..فى مثل هذا الموعد.

- نريدها الآن..

- ليس بمقدورى الآن.. ولا فى الغد

- أين؟

- سأتيكم بها بنفسى.

- اتفقنا!

لملم الأذناب شرهم .. أسرعوا نحو الباب.. تغزوهم نشوة النصر.. بينما صاح صلاح مسرعاً « نسيتوا شيئاً مهماً.. أعتقد هذا » وأومأ برأسه إلى جسده المقيد بالحبال لم يزل.

تبادل الجميع وهو معهم ضحكات صفراء وأسرعوا يفكوا قيوده.

« يا أولاد الهرمة » قالها صلاح وهو يتحسس أماكن الألم من جسده .. ثم أردف عاقداً العزم على الانتصار هذه المرة « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

فلحوا فى سرقة مستنداته فى المرة الماضية ..منذ أكثر من العامين.. زجوا به إلى السجن أشهر طويلة بتهمة السب والقذف والتشهير..حاربوه بعدها طويلاً.. فرضوا على قلمه الحظر إلى اجل غير مسمى.

جبروت يمكنهم من إغلاق الجريدة.. وتشريد العاملين بها.. من هدمها على رؤوس من فيها.. من نسفها عياناً بياناً .. دون ذرة خوف من أحد.

لم يقم بإعادة ترتيب الأشياء داخل الشقة على ما كانت عليه..ولم يشغل باله بهذا مطلقا.

فقط أخذ حماماً بارداً كعادته صيفاً وشتاءً.. أكمل شياكته وهندامه.. وذهب فى منتهى الهدوء إلى مكتبه بالجريدة.

غريب هو لا يبالى بأى شىء فى الحياة سوى عشقه لوطنه .. وكرامته.. ومظهره الذى يبدو دائماً غاية فى التأنق والهندام.

مضت ساعات الغد بطيئة.. ثقيلة.. على النائب وأذنابه.. عادية جداً على صلاح.. وجاء بعد الغد المرتقب.. وحان الموعد.

استيقظ من نومه نشيطاً.. يفرد ذراعيه ويثنيهما فى ارتياح كبير.. ينم عن أنه نام بعمق.. بعد أن استبدل زجاج النافذة المكسور أمس.

تذكره أخيراً.. فثمة فائدة للأذناب أحياناً.. عندما يجتاحوا الأماكن كالثيران الهائجة.

توقع أن يأتيه الهاتف بأنباء ينتظرها على أحر من الجمر.. منذ أن ذهب موضوعه الأخير إلى المطبعة ..ربما هذا ما جعله يستيقظ

مبكراً على غير عادته.

بيد أن الهاتف لم ينبس برنة.. ورغم ذلك ورغم تذبذب ثقته فى عدالة الأرض.. ظل يجهز نفسه لسماع تلك الأخبار المنتظرة.. ويتدرب على رد الفعل الذى سيصدر عنه فى هذه اللحظة.. التى كاد يدفع عمره ثمناً لها.. ولم تزل حياته رهناً بها.

توقف تفكيره فجأة.. ظلت يده ممسكة بمفتاح المذياع.. وصوت قارىء الأخبار يجلد مسامعه « والوزراء الجدد هم .....»

مضى وقت طويل لم يستعد توازنه.. ويلملم شتات نفسه المشردة.

كان يعلم قبل ذلك أن البعض فوق القانون.. الآن فقط آمن أنه لا قانون.

لملم أوراقه ومتعلقاته الشخصية مع بقايا شتاته.. وجهز نفسه لرحلة يعتادها.



(١٠)

الديك الذهب

كانـت الأرض السـبخية تتقـد تحـت قـدميها الصغيرة.. وحـرارة الشـمس القائظـة تكـاد تشـعل بدنها النحيل.. بينما كان يضـفي الصـمت المريـب علي المكان جوا أسطوريا مرعبا.

تتحسس الصغيرة الأرض الوعرة تحت قـدميها بحـذر فطـري.. خوفـاً أن تنزلـق فجـأة في إحـدي الحفر.. المنتشرة علي امتداد التل الأثرى.

يبدو شـعرها الأشـقر الخفيـف شـاحبا.. بينمـا تشتعل وجنتاها تحت أشعة الشمس المحرقة.

يعلـو ويـنخفض مسـتوى رأسـها.. وتختفـى لحظـات كثيـرة.. تبـدو شـبحاً مرعبـاً وسـط هـذا المكان المهجور.. الذي نادرا ما يعبره أحد.. فقـد كـان النـاس يرهبونـه وينسـبون إليـه الخرافـات

والأساطير العجيبة.. قالوا إنه مسكون بالعفاريت ذي العيون الحمر والقرون المدببة.. أكدوا أنهم رأوها رأى العين.. ومنهم من أقسم علي ذلك.. وصفوا بعضها بالطويل جداً الذي يصل إلي قبة السماء.. وبعضها بالقصير جداً الذي لا يكاد يُرى.. وبعضها بالأسود الغطيس..

كانت الصغيرة مسكونة بحكايات الأجداد الجميلة.. التى تربت عليها الأجيال هناك فى القرية البعيدة.. الواقعة على الحدود الشمالية للبلاد .. والتى كانت جزءاً من تلٍ أثرى شاسع .. سمعت عن هؤلاء المحظوظين الذين عثروا علي كنوز الفراعين .. من مساخيط وعملات ذهبية وخلافه.. التى حفظتها لهم الأرض الطيبة من الزمن البائد.

هناك في القرية الصغيرة عشقت حدوتة الديك الدهب .. الرابض شمال مقبرة القرية.. فى الجهة القبلية من التل الأثري.. والذي لا يظهر إلا وقت الظهيرة.. لحظة تعامد الشمس علي الأرض تماماً.. يخرج من بيته الحجري.. الكائن تحت الأرض بأمتار.. يقف علي كتلة صخرية كبيرة أعلي ذلك البيت.. يصيح صيحة واحدة فقط .. ثم يعود إلي مكمنه.

قالوا هو ديك ضخم من الذهب الخالص.. من يلمح هذا الديك

المسحور ولو بطرف عينيه .. يسعد بقية حياته.. وتهبط عليه ثروة عظيمة من حيث لا يدري.. تمتد آثارها إلي أحفاد الأحفاد.

حاول الكثيرون أن يتربصوا به ليفوزوا بتلك اللمحة لكنه كان يخيب رجاءهم.

وفى الخفاء تتسلل الصغيرة بحذر لتفوز وحدها دون سائر البشر برؤية الديك الدهب.. ويقينها أنه لن يخذلها وأنها ستراه يوما .. بل وتصبح صديقته.. هكذا سارت إليه فى كل مرة يحدوها الأمل.

تجمع في طريقها العملات البرونزية والنحاسية من العصور المختلفة.. دون أن تدري ماهية تلك القطع الصغيرة.. المزينة بنقوش غريبة.. تزيح بيدها الرقيقة التراب المتراكم علي الأواني الفخارية .. بحذر شديد حتي لا تنكسر.. تُخرجها بحنو وعطف .. وتقدير من يعرف معني تلك الحضارة الكامنة تحت هذا التراب.. وقلبها الصغير عاجز عن احتواء سعادته.. تجلس ملياً تتأمل تلك النقوش المنمنمة علي هذه الأواني.. حتي يخيل للرائى أنها تقرأها.. وتعرف جيدا ما تعنيه هذه الرسومات الغريبة.

عثرت ذات مرة فى التراب على تمثال صغير لأبى الهول .. يقرب وزنه من الكيلو جرام.. تحفة فنية وأثرية رائعة.

رفضت بشدة محاولة المساومة على بيعه .. من الرجل الذى يمر

كل فترة.. ليشترى تلك الأشياء التى يعثر عليها النـاس فى هـذا التـل السخى .

أتى الرجل مراراً ورفضت هى على الدوام.

رجعت ذات مرة من رحلة التنقيب المعتادة .. لتجد أحد أطرافـه قد كُسرت.. جعلت تبكى دون انقطاع .. بينما لا تجد والـدتها سـبباً لهذا البكاء الحار..غير أنها قطعة من الحجر قد كُسرت.. ويجب أن تكف عن هذا البكاء وإلا ضُربت بعنف.

مرت السـنون.. وكبـرت الصـغيرة .. وكبـر معهـا عشـقها للتـل الأثرى .. رغم انقطاع رحلاتهـا التنقيبيـة إليـه.. منـذ أن شـبت عـن الطوق « البنت قطعة من أثاث البيت» هكذا تقول أمها دائماً...

بدأت تسمع كلاماً كثيـراً عـن العيـب .. والتقاليـد.. والعـرف.. منعتها أمها من الخروج نهائياً إلا إلى المدرسة فقط.

لم يرق قلب الأم مرة لتوسلات ابنتها بشأن هذا التل الأثرى .. بل مجرد ذكره كان يفجر بداخل الأم بركاناً من الغضب.. والرعب على ابنتها من ذلك المكان المخيف.

حتى أيام كانت صغيرة.. لم تتعد سنواتها الخمس.. عنـدما كانـت تتسلل من خلفها وهى منهمكة فى أعمال البيت.. لم تكـن الأم تطيـق

صبراً.. فتهرع مهرولة إلى هذه المساحة المخيفة من الأرض خلف القرية.. تنادى مذعورة على تلك الصغيرة المتعبة « لابد أننى سأجدك مقتولة فى هذه الخرابة يوما » تتمتم الأم وهى تمسك بيد الصغيرة لتخرجها من حفرة انزلقت قدمها داخلها.

سنوات طويلة مضت على هذه الذكريات.. المحببة إلى نفسها..أصبحت شابة الآن بالسنة الثانية بكلية الآثار.. لكنها تحن أبدا إلى تلك الأيام الخوالى.. قبل أن تحجب تلك البنايات الشامخة الرؤية.. ويختفى تحتها وخلفها التل الأثرى.. تعذرت الرؤية حتى من فوق سطح المنزل.. الذى ارتفع هو الآخر بمحاذاة تلك الكتل الخرسانية الضخمة .. التى غطت سطح التل عن آخره.. والتي تربض أسفلها الورش والمحلات وصالونات الحلاقة.

شىء ما يدعوها إلى البكاء.. للصراخ بأعلى صوت.

اليوم مليئة هى بتلك بالذكريات.. مشحونة بكمٍ لا يقاوم من الحنين.. يمر عمرها كشريط سينما أمام عينيها.. تود لو تهيم على وجهها خلال هذه الكتل الخرسانية الصماء.. تود لو تهشمها.. تدمرها.. لو تصرخ.. وتصرخ.. وتصرخ.

« لِمَ كل هذا التعدى البشع على عصور.. وحضارة.. وخصوصية أناس لَا يملكون الآن من أمرهم شيئاً.. لايقدرون على الدفاع عن

حضارتهم المهدرة تحت هذه الجرافات والمعدات القاسية؟!».

عشق قديم لذاك التل الأثرى دفعها إلى الالتحاق بكلية الآثار.. نفس العشق القديم يدفعها الآن إلى هذا الصراخ والانهيار.. للشجب .. للإدانة.. لأشياء عديدة.. تود لو ترتبها الآن فى فكرها .. لولا حالتها النفسية السيئة.

عرفت من خلال دراستها للآثار أن الذى أُغرمت به فى طفولتها.. ودامت تسمع حكايتة المسلية.. وباتت تحفظها عن ظهر قلب.. وترويها بلا ملل علي مر السنين.. اكتشفت أن تلك الحدوتة الجميلة ما هي إلا مجرد أسطورة.. لا يعلم حتي علي وجه التقريب من نسجها.. ولا أي عهد خرجت هي من رحمه.. غير أن الجميع يتعاطي تلك الأقصوصة الرائعة .. التي شكلت وجدان أجيال سابقة ورسمت تفاصيلها المتناغمة مشوار حياتهم.

فهذا الذي أغرمت به منذ نعومة أظفارها كان حماماً رائعاً من العصر الروماني.. وليس بيتاً للديك الدهب المزعوم.

« يا ترى الديك الدهب لسة مكانه يا ماما» قالتها بلا إرادة أو ترتيب.

مفاجأة أدهشت الأم « انا ظنيت انك نسيتى الخرافات دى خلاص.. انتى كبرتى دلوقت يا حبيبتى.. و لازم تكونى عاقلة اكتر

وتعرف إن دى تخاريف مالهاش وجود.. حكايات اخترعوها زمان .. كانوا بيسلونا بيها واحنا صغيرين».

أسرعت قائلة «مجرد سؤال فقط.. انا عارفة انه مفيش حاجة اسمها ديك دهب.. انا درست ده فى الكلية .. وعرفت الحقيقة ».

وعندما فرغت الابنة من شرح حقيقة هذا الأثر.. الذى لم يقدره أحد ممن تعاملوا معه.. وجدت علامات السرور تعلو وجه الأم « سبحان الله .. العلم نور فعلاً» همست الأم مستريحة.. ثم أردفت قائلة « قالوا ان الرجل اللى اشترى المكان ده فتت الكتلة الحجرية الكبيرة وبنى مصنع تلج مكانها».

غامت الرؤية فى عينى الابنة طالبة الآثار.

« تباً للجهل.. سحقاً للغباء!» تمتمت بلا وعى .



(١١)

رؤيـــا

نعق غراب البين.. فهوت العاصـمة الجميلـة.. وأجوارها صـرعى بـين أيـدى الخـراب.. تكـدس الجميع فى مخبأ ..فى جوف الأرض تحت المشفى .. أزيـــز الطـــائرات يخـــتلط بــــدوى القنابــــل .. وانفجارات مرعبة بالخارج.. السماء تمطـر وهجـاً وناراً مستعرة.

« نبوخذ نصر العظيم أين أنت؟ بابلك الجميلـة تُـدك بأقـدام الأغبيـاء.. عجيبـة الـدنيا الخالـدة تُطمـس.. حـدائقك الوارفـة تـذبل.. تشـحب.. تجف.. تُسحق» تدوى صرخات المدن العزيـزات فى آذان الكون.

« حورابى الحكيم .. قوانينك العادلة تُمحى من الوجود.. تعاليمك الرائعة تـدهس بـنفس الأقـدام

الغبية.. آهٍ لو سابق العهد يعود!» تموج المدن غضبى ثائرة.

دُكت الحصون والقلاع .. حُصدت أرواح الأبرياء ..نساء.. شيوخ ..أطفال.. لايهم.. لا فرق.. لا رحمة .. لا ضمير.

مجرد غارة اعتادها أهل البلاد من العدو.. تتكرر مراراً ودائماً.. ويمضى الحال من سئ إلى أسوأ.. اختلطت الدموع بالدماء.. والأنقاض بالأشلاء.

« إلامَ هذا الدمار؟!» صرخت القلوب المكلومة.. ولا مجيب لشعب يُباد وبلد يُحرق.. ولا حتى مجرد سامع.

تأوهت الأم الشابة.. التى لم تكد تضع مولودها الثانى حتى تقافزوا بها وبالوليد..إلى هذا المخبأ تحت مبنى المستشفى.. زفرت متحسرة لهيباً أشد من ذلك المستعر بالخارج.. عاودها الإحساس بالألم الداخلى فجأة بعدما همد كل شىء.. وخرست تلك الأصوات الملعونة.. وخرست معها أصوات عزيزة وغالية إلى الأبد.

أشار إليها الطبيب الذى أجرى لها عملية الولادة القيصرية أن تهدأ.. مؤكداً أن العملية تمت بنجاح ولا داعى للقلق مطلقاً.. وعليها أن تحمد الله كثيراً .. فقد كتب لها عمراً جديداً.. دقائق فقط كانت الفيصل بين الموت والحياة لو تأخروا.. بينما تبدو غير متذكرة تماماً من هول ما حدث.. أنها كانت فى غرفة العمليات منذ وقت قصير.

لا تـدرى «رؤيـا» لمَ مـر هـذا المشـهد أمـام عينيهـا الآن.. تلـك الأحداث المريرة .. التى جعلتها تستجيب لرغبة زوجهـا المصـرى المُلحة بأن تأتى بالطفلين إلى مصر.. بعدما اسـتحالت عودتـه إلـيهم من زيارة والديه القصيرة بسبب تلك الظروف القاسية.

« الأب هو بر الأمان لأولاده.. فـيمَ بقـائى هنـا؟ فـأولادى أهـم عندى من أى شىء» تمتمت فى نفسها ثم حزمت أمرها فى لحظة.

ربمـا جبُنـت أمـام القصـف والـدماء.. بـل فكـرت كـأى أم فى الوجود.. فالقطة تنقل صغارها سبع مـرات.. لمَ لا تـنقلهم هـى مـرة واحدة فيها كل الأمـان والاطمئنـان.. ربمـا الهـروب مـن الحصـار والدمار.. الجاثم على أنفاسهم منذ سنوات طوال.

« لا.. لا.. لم أجـبن.. لم أهـرب.. لم أنـس بلـدى وأهـلى وأجمـل ذكريات عمرى» همست باكية وهى منكفئة على ماكينة الخياطة التـى يكاد العمل عليها ليل نهار يقصم ظهرها.

لم تكن المرة الأولى التى تشعر فيهـا بهـذا الألم.. أسـندت ظهرهـا براحة يدها اليسرى.. وهـى تضـغط بأسـنانها عـلى شـفتها السـفلى.. أدارت عجلة الماكينة بيدها اليمنـى.. وأخـذت رجلاهـا تبـدل عـلى الدواسة فى تثاقل وبطء.

لم تعد تحتمل.. زفرت متأوهة ثم نهضت متحاملة على نفسها.. إلى

أن وصلت فراشها الخشن.. ارتمت عليه تقضم الوسادة من شدة الألم.

«لابد من إجراء العملية» قال لها الطبيببالمركز الطبى المجانى بالبلدة المجاورة.

لكنها أهملت لضيق ذات اليد.. وظلت تتحايل على آلامها ببعض المسكنات قليلة التكلفة.

اليوم لا طاقة لها بالألم .. فهى التى طالما هزمت المرض.. خبت مقاومتها أمام جبرونه الرهيب هذه المرة.. خضعت مستسلمة فى انكسار.

« أم أحمد.. أم أحمد!» نادت إحدى الجارات.

« تفضلى يا ست أم حسن» ردت رؤيا بصوت منهك مبحوح كأنه حشرجة.

« سلامتك يا أم أحمد.. سلامتك يا غالية» جرت المرأة إليها مذعورة.

-أنا كويسة.. ما تتخضيش كده.

-لا.. لازم أوديك لدكتور.

-مفيش لزوم أبداً.. انا كويسة خالص.

وابتلعت ريقها بصعوبة وهى تشكر الجارة العطوفة .. فالأهـل لا يفعلون ما يفعله الجيران لها فى مصر.

« كان عنده حق المرحوم يصر على مجيئنا لمصر.. انتم فعلاً أهل كـرم ومـروءة وأصـل» همسـت وهـى تحـاول إخفـاء دموعهـا دون جدوى.

« ما تقوليش كـده .. دانـت اختنـا وزى المرحـوم تمـام» ربتـت الجارة على ظهرها فى حنو وعطف .

انحدرت العبرات مـن عينيهـا سـاخنة.. تسـاقطت عـلى وجههـا الشاحب.. العاتبة ملامحه العربية الأصيلة على هذا الزمان.

« أولادى.. حنان وأحمد.. خلى بالك منهم ياست أم حسن.. دول بيحبوك زيى تمام وأكتر» قالت بصوت واهٍ ونشجت حتـى تقطعـت أنفاسها.. والمرأة تحتضنها لم تزل وتربت على ظهرها.

«إيه يا رؤيا؟ مالك النهارده؟ انت زى الفل يا حبيبتـى.. وإن شـاء الله محدش هياخد باله منهم ويفرح بيهم غيرك» قالت المرأة منقبضة شاردة.

وبين الوعى واللاوعى بدت رؤيا .. مر أمام عينيها شريط حياتهـا بطيئاً.. جاءت مصر.. تركت وراءها كل شىء.. وظيفتهـا المرموقـة

بواحدة من أكبر شركات النفط.. ثروتها الضخمة التى ورثتها عن أبيها وجدها.

تركت كل شىء من أجل أولادها .. وجاءت لتعيش فى قرية ريفية صغيرة.. مع زوج لم تدم حياته معها إلا أشهر قليلة.. رحل وتركها تواجه الحياة بطفليها فرادى.. لا سند ولا حماية.. فى بيت صغير خالى من الدفء والنبض.. تحتضن الطفلين وتجتر ذاكرتها فى ليالى الشتاء الطويلة.

ألبوم ملىء بالصور هو ملاذها دائماً .. تغوص فيه فيقتلها التحسر على أيام خلت.. ذلك الألبوم الذى لم يفكر أحد أن يأخذه منها فى رحلتها المضنية إلى مصر.. لأنه معدوم القيمة والنفع كما قالوا.

فقدت كل أوراقها كما فقدت كل أشياءها فى رحلة المجىء الدامية.. التى كتب عليها وطفليها خوضها بكل ما فيها من شقاء ومرارة.

رحلة أليمة لا تحب أن تتذكرها.. لا تدرى لَمَ تمر بخاطرها الآن؟ تتهادى بكل تفاصيلها.. منذ اللحظة الأولى التى ودعت فيها الأهل والأحبة وتوجهت إلى حدود البلاد.. آملة فى العبور إلى بر الأمان.

ويتوقف شريط الذكريات.. تتمنى لو أن هذا الذى مر أمام عينيها مجرد حلم.. أو حتى كابوس أفاقت منه لتوها.. وأن نهايته هى ذلك

السكون الذى جثم عليها فجأة.

يستأنف الشريط كره.. رعشة عارضة تهزها.. يتوقف الشريط طويلاً على الحدود .. ألواناً من الذل والعذاب لاقتها هناك.. كأنه الحقد لخروج إنسان محاصر إلى مكان أكثر تحرراً.. ربما لهم العذر.. لكن ما ذنبها وأطفالها؟ !

أخذوا كل نقودها وحليها.. وحقائب الملابس..حتى علب اللبن الخاصة بالرضيع سكبوها على الأرض.. وهى لا تملك إلا أن تحتضن الطفلين وتبكى .. وتضرع إلى الله أن يرحمهم مما هم فيه.

« أنا إنسان مثلكم .. ارحمونى يرحمكم الله!!» صرخت فيهم بهستيريا.

ولأول مرة فى حياتها تعلم أن الإنسان بهذا الهوان.. وأن الدنيا بهذا القبح.. وأن الآدمية والمشاعر والعزة والكرامة .. ما هى إلا مجرد كلمات وهمية لا وجود لها.. ولا احترام لحاملها بأى شكل من الأشكال.

غادرت رؤيا منطقة الرطبة على حدود بلادها محطمة تماماً.. لاشىء فى يدها سوى الطفلين وخيبة أمل كبيرة فى الدنيا والبشر.

انحسر اللاوعى شيئاً شيئاً.. بدأت تتركز فى بؤرة شعورها حقيقة

ما.. وجعلت تتمتم بلهجة مصرية صميمة.. أتقنتها على مدى تسع سنوات عاشتها كمصرية أصيلة ولدت على أرض هذه البلاد.

رفعت رأسها فى تثاقل شديد.. كأنها تحمل أطناناً من الرمل فوق عنقها لا رأساً لها هذه الملامح الهادئة المريحة.. يزينه هذا الشعر الأسود المسبل إلى خاصرتها.

ساعدتها الجارة حتى تعتدل فى فراشها.. داعية لها بالشفاء.. وجعلت تقرأ الفاتحة والمعوذتين.

« بلغوا سلامى وحبى لأهلى وبلدى .. للفرات ودجلة.. لكل ذرة تراب على أرض وطنى .. لكل نبت أخضر يبحث عن مكان للحياة فى أمان وسلام!» تأوهت ثم همست فى هدوء.

«حنان.. أحمد.. نور عينى.. خلى بالك منهم يا ست أم ح.. س.. ن» أردفت بصوت خافت متقطع .



(١٢)

السحابة البيضاء

بدأ الشتاء الكئيب يلملم أيامه القاتمة.. ولياليه الطويلة الجامدة.. التى لا تحبها وتنقبض منها طفولتها الهشة.. شيئا شيئا انتعش الوجود.. وشيئا شيئا تزينت الدنيا بالألوان الزاهية النضيرة.

نفثت حدائق البرتقال واليوسفى عبقها الزكى.. المختلط بشذا أزهار الخوخ والمشمش والليمون.. المنتشرة هنا وهناك.

فراشة صغيرة.. جميلة.. شردت عن السرب.. انتحت جانباً.. قاصدة شجرة الفل.. القابعة هناك على البعد على حافة النهر.

صنعت عقداً جميلاً..وسواراً زينت به معصمها الصغير.. وخاتماً لأصبعها الرقيق.. ولرأسها تاجاً فاتناً.

مضت عائدة إلى البيت.. وعيناها الزمرديتان تلتمعان حسناً وبريقاً قلما تحويه عيون بشر.. وجيدها النحيل منقوع فى عبير الفل الفواح.

ملاك جميل بدت الصغيرة وهى تتهادى على الطريق المؤدى إلى منزلها.

« لحظة يا قطقوطة» قالتها الجارة كعادتها فى كل يوم .. حينما تنتظرها وهى عائدة من المدرسة.. وتردف بسرعة « قربى أكثر..خلينى أبصلك علشان أجيب بنت تشبهك.. فى ملامحك الحلوة المسمسمة.. وعنيكى الخضرا الجميلة دى».

وببراءة الأطفال تبتسم الصغيرة دون أن تدرى ماذا تعنى تلك المرأة السمراء ضيقة العينين منتفخة البطن..هى جارة مزعجة وحشرية لكنها ليست سيئة جداً على أية حال.

« تعالى يا بنت .. كفياكى تأخير بقى» يأتى صوت الأم ممزوجا ببعض الضيق.

ترجف الصغيرة.. فأمها لا تحب تأخرها خارج البيت لأى سبب .. وبخاصة تلك الرومانسية والنعومة التى تبدو فى طبعها.. فهى ترى هذه الرقة عيباً كبيراً.. تثير طمع الأغبياء ومرضى النفوس.. وتدعو الناس للاستخفاف بعقلها.

« أسفة يا ماما.. رحت عند شجرة الفل غصب عنى .. مش

هاعمل كدا تانى » تهمس الصغيرة وهى تقـدم أولى خطواتهـا داخـل البيت.

وقت يسير واشتعلت وجنتا الصغيرة.. شـعرت بالنـار تسـرى فى كامل جسدها .. جعلت تزدرد ريقها بصعوبة بالغة.. لمعـت عيناهـا الخضراوان النجلاوان ببعض العبرات اللاإرادية .. بينما بدت خلفية عينيها حمراء قانية.. ندت عنها آهة واهنة.. تتابعت بعدها الآهات.

« ماتخافيش يا حبيبتى .. هاتبقى كويسـة بعـد ماتخـدى المضـاد الحيـوى.. وتشـربى الليمـون السـخن ده» ربتـت الأم عـلى ظهـر الصغيرة.

انتظرت الأم أن تنخفض الحـرارة دون جـدوى.. جعلـت تـذرع الغرفة جيئة وذهاباً « أعمل إيـه بـس يـاربى؟ بنتـى بتضـيع منـى» .. بينماتئن الصغيرة بلا انقطاع.

ارتـدت الأم ملابـس الخـروج مهرولـة.. حملـت الصـغيرة إلى الطبيب.. وقد جعلت تهذى وتتمتم بكلمات غير مفهومة.

« كم عمرها؟» سأل الطبيب .. وأجابت الأم « سبع سنوات».

وبعد صمت قليل عاود الطبيب مسائلاً:

- من امتى وهى كدا ؟

- بقالها كام ساعة يا دكتور.

- ولسة جايباها؟

- قلت حمى عادية هتروح بالمضاد الحيوى والتدفية فى السرير.

- الحقيقة هى حالة غريبة جداً .. لم تصادفنى طوال سنوات عملى.

- ودا معناه إيه يا دكتور؟!

- يفعل الله ما يريد!

انفجرت دموع الأم .. فى حين جلس الطبيب على مكتبه.. يتحدث فى الهاتف همساً .. باللغة العربية تارة.. وبالإنجليزية تارات شتى.

وضع الطبيب سماعة الهاتف.. بعد حديث طويل جداً مع أكثر من طرف.. ولم تزل الأم مشغولة عما يجرى حولها بدموعها الغزيرة وأفكارها المرعبة.

«هاعمل كل اللى أقدر عليه .. اطمنى.. ولكن أرجوك الهدوء عشان أعرف أشوف شغلى » حدثها الطبيب برفق.. وأسرعت الأم ترجوه وتتوسل إليه أن ينقذ ابنتها ولن يسمع لها صوتاً مطلقاً.

انفرجت الأزمة.. وتخطت الصغيرة مرحلة الخطر حسب كلام

الطبيب.. وقفت الأم عاجزة عن الشكر.. لا تعرف كيف تكافئ هذا الإنسان الذى رد إليها روحها.. التى كادت تزهق من مجرد التفكير فى رحيل الطفلة عن الحياة.

مرت أيام قلائل.. تعافت الصغيرة تماماً.. إلا من رمد بعينيها لا يريد أن يزايلها.. حار الطبيب معه.. وحارت العقاقير.

« قد يزول بعد فترة» قالت الأم بينها وبين نفسها دون أدنى سوء ظن.

عادت الصغيرة إلى المدرسة.. وفى ذهابها وإيابها تنتظرها تلك المرأة السمراء ضيقة العينين منتفخة البطن .. التى تريد أن تلد بنتاً تشبهها.

لعب القلق بقلب الأم فطافت بالصغيرة على كل أطباء العيون .. لكن عينىّ الصغيرة لم تستجب لأيهم.. تدهورت حالتها.. مضى اسبوعان على تلك الحال.. وعينا الصغيرة محمرة دامعة متقرحة.. والرؤية تقل تدريجياً.

وفى اليوم الأخير لعلاقتها المباشرة مع الألوان والضوء.. انتظرتها ذات المرأة السمراء ضيقة العينين منتفخة البطن وهى عائدة من المدرسة.. لتملى ناظريها من ذلك الحسن المتفرد.. والذى لم تقع عيناها الضيقة على مثيله..تحسست شعرها الأصفر المسترسل..

اللامع كخيوط الذهب « لسة عينك بتوجعك ..ياااه.. دى عين وصابتك يابنتى.. ياترى عين مين دى».

أخذت الصغيرة تتحسس الأرض تحت قدميها وهى تتخطى عتبة البيت.. وبصيص النور الذى كان ينعكس على عينيها مكوناً سحابة بيضاء يخبو رويداً رويداً.. وينسحب من أمامها حتى تلاشى تماما.



(١٣)

الغريبـــة

منذ سنوات وتلك المرأة الغريبة تدور بلا هويـة علـى البيـوت والمحـلات.. حتـى المكاتـب فى الهيئات الحكومية.. تهيم على وجهها فى الطرقات.. تستجدى هذا وتسب ذاك ونمدح الآخر وتضـرب الأطفال الصغار فى الشوارع.

ترشـق الأبـواب والنوافـذ بالحجـارة.. تجـرى وراء الفتيات لتمزق أثوابهن وتخطف ما بأيـدهن.. تفعل أشياء غريبة مثلها تماماً.

لا أحد يستطيع كبح جماحهـا.. فـلا وازع لـديها من عقـل أو حيـاء.. الجميـع يتحاشـاها خشـية أن تجعلـه أضـحوكة الحـى .. فـالجميع يعـرف أنهـا مجنونـة ويجـب تجنبهـا.. إلا موظفـات مكتـب السكرتارية بالمدرسة الثانوية.. فهى التى ترجوهن

دائما أن يتركنها فى حالها ويرحمنها مـن مكـرهن وخبـثهن.. فتكـون بينهن حملاً وديعاً وقع فريسة لقطيع من الضوارى .. لا يخلصـها مـن أيديهن إلا مها.. تلك السيدة الشابة.. الهادئة الوديعة ذات الملامـح المتناسقة الجميلة.. والتى تخطو حثيثاً نحو نهاية عقدها الرابع.

« سيبوها حرام عليكم.. دى مسكينة » تصيح فى زميلاتهـا بلطـف وتشير عليها بالانصراف من هذا المكتب فى التو.

« ليلى مين؟ دى سندس يا مها» قالت إحدى الزميلات.

حقاً هى تعلم ذلك لكنها تنسى دائماً وتناديها « ليلى» وتعود تتذكر عندما تلفت نظرها إحدى الزميلات.

من ليلى هذه؟ دائماً يسألنها ولا تجيب.. كثيراً مـا طلبـوا منهـا أن تحكى لهن قصتها.. بينما تصمت ربما من فرط الحيرة فيما إذا كـان من حقها أن تروى تلـك القصـة أم لا.. لكـن الإلحـاح شـديد هـذه المرة .

تسافر مها عبر ذكرياتها .. تحاول اسـتدعاء الأحـداث المسـتقرة على حافة الـذاكرة.. تنـادى عبثـاً عـلى بطلتهـا الغائبـة.. ربمـا يعـود الغائب.. ولكن الغائب لا يعود.

دارت الأرض بهـا.. تراقصـت فى عينيهـا الصـور المعلقـة عـلى

الحوائط.. واهتزت قطع الأثاث المنسقة حولها فى الصالة الكبيـرة.. وقبل أن تغيم الرؤيـة تمامـاً ناشـدت زوجهـا المحـامى الشـاب أن يتوقف عند هذا الحد من المناقشة.. التى احتـدت بينهمـا عـلى غيـر العادة دون أن يشعرا.

مضت متثاقلة إلى غرفة النوم لتـريح جسـدها المجهـد.. المثقـل بمسئولية مخلوق جديد يتكون بداخله.. لم تكـن المـرة الأولى التـى تشعر فيها بهذا الشعور وتعيش هذه الحالة.

كانت مفاجأة سارة جداً لقلبها عندما وضعت حملها الأول.. منـذ سنوات كثيرة واكتشفت أنها رزقت بتوءم جميل.. البنت والولد معاً.. يالها من نعمة تقدرها جيداً.. وتشكر عليها العـاطى الوهـاب صـبح مساء.

تحب الأطفال هى جداً.. تتمنى لو ترزق طفلاً فى كل عام.. تقول دائماً كما لـو كانـت رجـلاً مـن العصـور السـحيقة « الأولاد عـزوة وسند».. بيد ان الله أراد لها أن تكون هناك أعواماً ليست بالقليلة بـين كل حمل وآخر.. كانت راضية تماماً بـإرادة الله.. ورزقـت مـن حملهـا الثانى بطفلة جميلة.. شقية.. رائعة المحيا.. شديدة الشبه بها.

هى الآن فى شهور الحمل الأخيرة .. تنتظر مولودها القادم بصـبر نافد وشوق بالغ كما لم تنجب قط.. تود لو تدور الأيام دورتهـا لتـراه

وتسمع صوته.. تحدد ملامحه الصغيرة وتتحسس جلده الوردى الناعم.. ما أجمل هذا الإحساس لديها .

تشعر باختناق شديد.. يعلو ويهبط صدرها مع كل شهيق وزفير.. كأن ذرات الأكسجين تضاءلت فى الهواء .. وفى حركة تلقائية فتحت النافذة المغلقة بإحكام .. ألقت برأسها وبعض جسدها إلى الخارج.. صفعتها ريح باردة .. ربما لتذكرها أنه يجب عليها ان تدخل مسرعة.. وتحكم إغلاق النافذة مرة أخرى.. فسماء يناير الغائمة ستصب جام غضبها على الفور.

لكنها لم تلقى بالاً لهذا الإنذار الصريح .. ظلت عينها معلقة بمشهد لم تر فى حياتها مثله.. تصلبت أذنها وهى تلتقط تلك الهمهمات الغريبة التى ترددها امرأة ناشرة الشعر.. غريبة الأطوار والملبس.. بدت لها وكأنها جنية انشقت عنها الأرض.. أو خرجت من النهر المجاور للمنزل الكبير.

وفى عصبية شديدة ألقت المرأة صرة كانت فى حجرها بينما هى جالسة إلى جوار الجدار أسفل النافذة.. انطلقت صرخات مفاجئة من الصرة لحظة ارتطامها بالأرض.. فصرخت مها مفزوعة.

فجأة نشر الصمت غير المبرر عباءته على المكان .. لتكتشف مها أنها كانت شاردة طوال كل هذه الدقائق الماضية.. وأن التوسلات فى

عيون الزميلات قد اشتدت كثافتها بعد أن انتظرنها طويلا حتى تعود من شرودها .. وأفرغت كل منهن ما لديها من قصص قد تكون متشابهة مع القصة المنتظرة.. ومنهن ما شط بها الخيال إلى أبعد من ذلك فاخترعت قصصاً وسيناريوهات من بنات أفكارها.

وأمام رغبتهن الجارفة أخذت مها تحفر فى ذاكرتها .. وتخوض فى أعماق أيامها.. تلملم خيوط الأحداث البعيدة.. لتنسج منها أغرب قصة صادفتها فى حياتها.

بدا دور الراوية مناسباً لها تماماً.. والزميلات يصيخن السمع فى اهتمام غريب ودهشة.. فانبرت تعيش الأحداث من جديد...

كان يوماً غريباً مطيراً حين رأتها لأول مرة.. أرعبها منظرها وحركاتها وكلامها.. صرخت منادية زوجها الذى هرع إليها فى لمح البصر.. وقد قفزت إلى ذهنه خيالات مرعبة.. أشارت مرتعدة إلى أسفل فأخذ يربت على كتفها وبهدوء شديد أغلق النافذة.. وهو مازال يعتقد أن المناقشة التى احتدت منذ قليل هى السبب فى هذا الذى ألم بها.

وبعد وقت لا تدرى أكان طويلا أم قصيرا استيقظت من نومها.. بدأت تسترد عافيتها فيبدو أن أعصابها كانت مجهدة بالفعل.. وجدت فى نفسها أثر فرحة طارئة.. لقد وافق زوجها أخيراً على

تسلمها العمل.

« شكراً لك أيتها المرأة الغريبة!» قالت مبتهجة.

يعلو الصياح بالخارج .. يهرع الجميع إلى النوافذ.. لطمات تدوى على الخدود والرأس .. يشتد الصراخ حتى تنقطع الأنفاس وتغيب تماماً .. شتائم وألفاظ خادشة تُقذف فى وجه أشخاص وهميين لا وجود لهم إلا فى رأس تلك المرأة ناشرة الشعر غريبة الأطوار والملبس.

يلف الصمت المكان مرة أخرى ويتأكد لمها أنها كانت المتحدثة الوحيدة طوال كل هذا الوقت الفائت .. وقد ازدادت كثافة التوسلات فى العيون المنصتة..فعادت مها تلتقط خيوط الحديث من جديد.

ومرت أيام قلائل وجاء يوم تسلمها العمل .. وبعدما انقضى يومها الأول وفى طريق عودتها إلى المنزل اصطدمت بها ..همت لتمسك بتلابيبها بيدها القوية وأظفارها الطويلة كمخالب قط برى.. خرج أهل المنزل جميعاً على صراخ مها.

« سيبيها يا ليلى.. دى مدام ابنى .. الاستاذ محمود» قالت لها جدة الأولاد فتركتها على الفور وجلس الجميع يهدئون من روعها.

نادت جدة الأولاد على ليلى وتحدثت معها لبعض الوقت.. فهى

تحب الجدة كثيراً وتسمع كلامها.. لتصبح ليلى منذ ذلك الحين إنسانة أخرى تماماً.. فكان كل من يراها معهم وبينهم لا يصدق أبداً أنها هى .. تلك المجنونة ناشرة الشعر غريبة الأطوار والملبس.

مرت الشهور سريعا وجاء المولود المنتظر « أحمد».. والذى راق لليلى منذ اللحظة الأولى أن تسميه «لاوس» ولا أحد يدرى من أين جاءت بهذا الاسم وعندما سألتها مها قالت « أهو لاوس وخلاص يا ست ام لاوس».

« لاوس .. لاوس .. بس يعيش» قالت مهما ممازحة.

الغريب أن ليلى تحملت مسئولية تربية هذا الوليد منذ اليوم الأول.. أحبته كما لم تحب طفلا قط حتى رضيعها الذى بين يديها.. وتخاف عليه خوفها على شيء عزيز لم تمتلكه.. تحمله طيلة الوقت.. تغسل له لفائفه وسراويله الصغيرة وتقبلها قبل أن تطويها وتضعها فى خزانة ملابسه.

فجأة اختفت ليلى برضيعها كما ظهرت .. تاركة «لاوس» ابن الأربعين يوماً.. ذابت مع ثلوج الشتاء دون أن يدرى بها أحد.. أو تترك وراءها أثراً يشى للنفس بعودتها يوما.

لملمت خلفها الخماسين ذراتها المطبقة على الدنيا.. كما مر الصيف المرهق بقيظة وجوه الخانق دون أن يبشر بعودتها.

ونسى الجميع ليلى وكلام ليلى وصراخها وألفاظها.. لكن شيئاً ما بقى بقلب مها وذاكرتها لتلك المرأة ناشرة الشعر غريبة الأطوار والملبس.

عادت المدارس تفتح أبوابها من جديد.. وغرقت مها فى العمل وكادت تنسى هى الأخرى تلك الليلى ناشرة الشعر غريبة الأطوار والملبس.

وذات يوم أثناء عودتها من المدرسة لمحت مها نفس البطاطين والأسمال البالية منشورة على سور حديقة المنزل وأفرع الأشجار المتدلية فوقه.. شئ ما بدأ يعتمل فى نفسها.

« ليتها تكون هى» همست فى نفسها.

« ازيك يا ست ام لاوس» بادرتها قبل أن تكمل حديثها الهامس.

وبعد حديث ليس بالطويل دار بينهما فى الشارع أخذتها مها إلى الداخل لترى حبيبها لاوس.. ثم تركتها معه وقد انشغلت بتبديل ملابسها.. مطمئنة تماماً أن صغيرها فى أيد أمينة.. رغم كل التحذيرات التى انهالت عليها سابقاً من الجارات والأقارب .

حاولت مها إقناعها بأن تخصص لها مكاناً حتى ولو فى الجراج يحميها هى وصغيرها من الأمطار والبرد.. إلا أنها كانت تأبى بشدة

وتشير إلى السماء قائلة « اللى خلقتنا يحمينا».

وتستمر الحياة وتمضى الأيام بالبشر.. وينقضى الشتاء.. وتختفى ليلى مرة أخرى .. ودون أن تودع أحداً .. وتحار العقول مرة أخرى فى سر ظهورها واختفائها المفاجئ.. وكالعادة ينسى الجميع ليلى وحكاياتها العجيبة.. ويبقى بقلب مها وذاكرتها شئ لتلك المرأة الغريبة ناشرة الشعر غريبة الأطوار والملبس.

سنوات مرت على تلك الحال .. تظهر ليلى وتختفى .. ولم يعد يندهش الناس من ذلك الحدث.. وانشغل كل بأموره عن هلاوسها ومنظرها الذى غدا مألوفاً لديهم.. فأصبح من الطبيعى أن يرى الجميع امرأة غريبة تبيت إلى جوار الجدار فى ليالى الشتاء القارسة.. رافضة أن يستضيفها أحد أو أن تحتمى بصغيرها فى أى ركن من العواصف والرعود والأمطار.. تستيقظ مع الفجر فى كل يوم تلملم أسمالها من على أفرع الأشجار لتغسلها فى النهر ثم تنشرها مرة أخرى.. تغمر صغيرها فى ماء النهر البارد ليلا أو نهاراً كلما اتسخت يداه أو ملابسه.

غدا بديهياً أن يتمهل كل من يقصد دورة مياه المسجد فى أية ساعة من نهار أو ليل .. ليتأكد من عدم وجود ليلى بالداخل للاستحمام.. حتى ولو لم تكن تصيح بترنيماتها الغريبة التى تشبه

تمتمات السحرة والمشعوزين.. وإنذاراتها الفجة لكل من يسوقه قدره إلى هذا المكان فى تلك الساعة.

ويمضى قطار السنين .. وتظهر ليلى مع الرعود والمطر .. وتختفى مع أول خيوط الدفء .. وينسى الناس..ويتذكرون .

« يا ترى انتى فين دلوقت يا ليلى؟» تتنهد مها وتهمس حزينة متأثرة.

تركتهم ليلى منذ أن التحق لاوس بالمدرسة.. سبع سنوات مرت على اختفائها.. سبع سنوات والشتاء يأتى بدونها.. ترى هل مازالت حية؟ هل مازالت تذكرهم؟ هل مازالت تحب لاوس؟ لقد كبر الآن وكاد يتخطاها عوده.. مسكينة ليلى .. أتت وغادرت دون ان يعرف أحد حكايتها.

تنهمر بعض الدمعات من عيني مها وتصمت طويلاً.. ويبقى بقلبها وذاكرتها شيء لتلك المرأة ناشرة الشعر غريبة الاطوار والملبس.



(١٤)

أعواد الثقاب

صراخ وعويل شق سماء القرية الكبيرة وبدد سكون الليل.. لم يكن غريباً أن يحدث هذا الذى يعنى أن هناك حادثة ما قد جرت.. وغالباً ما يكون هذا تعبيراً عن فقد عزيز.. ورغم معرفة الناس الأكيدة لهذا إلا أنه شيئاً مفزعاً لم يزل.. فلا يعلم أحد من هؤلاء الذين يغطون فى نومهم أى فرد حانت ساعته.. إلا أنهم هذه المرة يعلمون تقريباً.

فى لحظات امتلأت شوارع القرية بالناس.. جعل الرجال يلغطون وهم يندفعون نحو البيت مصدر الضجيج.. امتلأت الدار الكبيرة سريعاً وذلك الفناء الواسع بالخارج أيضاً.. وقت يسير وتدافعت النسوة متشحات بالسواد.. كأنهن قطعٌ متحركة من الليل البهيم.

يُسمع للجميع همهمات متداخلة ومصمصات شفاة.. وعلى الشاطئ الشرقى للترعة الصغيرة التى تقسم البلدة إلى نصفين أحدهما كبير نسبياً عن الآخر.. سُمعت عجوز تصيح وتولول وهى تندفع كالريح قاصدة منزل المتوفى.. والذى يعرف الجميع أنه الأخ الأكبر لها وكبير العائلة المتشعبة فى أماكن شتى.

وقت مضى لا يعرف الناس كم على وجه الدقة.. بدأ الجمع يتفرق كل إلى داره إلا بعض الأقارب والمقربين الذين قضوا ليلتهم بمنزل المتوفى الذى قرر أبناؤه أن يدفنوه بعد ظهر الغد.

ومع بذوغ أول شعاع للشمس كان الابن الأكبر للمتوفى.. أو العمدة الصغير كما يطلق عليه أهل القرية يوزع الأدوار على إخوته وأزواج أخواته البنات.. ظل هو باقياً يباشر أمور الغُسل وتجهيز ذلك الجسد المسجّى هناك فى غرفة بأقصى البيت.

« إنا لله وإنا إليه راجعون .. توفى إلى رحمة الله تعالى الحاج...» كرر رجل عبر مكبر الصوت بمسجد القرية مرات عديدة.. هز الصوت أرجاء القرية ونفذ إلى بعض البيوت المتناثرة حولها.. وتناقل الناس الخبر إلى ما بعد ذلك.

توافدت الجموع من القرى المجاورة والأقارب من بلاد بعيدة.. بينما قد تمت طقوس الغسل على خير ما يرام هناك فى قاع

الدار.

ارتفعت شمس الضحى معلنة عن قرب موعد التحرك بالجنازة إلى المسجد للصلاة عليها.. فى حين تجمع الرجال الذين تفرقوا من قبل إلى مهامهم.

« رتبت موضوع الحراسة يا حاج أحمد» قال العمدة الصغير لزوج أخته الكبرى.

«كله تمام يا عمدة» قال الحاج أحمد مؤكداً .

سار الناس بالجنازة إلى المسجد يصاحبهم صوت المؤذن عالياً.

عشرون فداناً هى مساحة مقابر القرية.. على بُعد خمسمائة متر تقريباً.. لا تكاد تمر أيام قلائل حتى تدفن بها جثة.. وعلى الفور يرابط أكثر من خمسين رجلاً على رأس مقبرة المتوفى ليل نهار.. ولمدة أيام طويلة حسب اعتقاد أهل الميت أن الجثة بدأت تتحلل.. وأن كل دقيقة تُعد خطوة واسعة جداً نحو العدم.. وغدا هذا المشهد الغريب مألوفاً لدى كل القرى المجاورة وحتى المارة من الغرباء.

ليس هذا تقليداً جديداً ابتكره أهل القرية من فرط الحب لموتاهم.. أو عدم القدرة على فراقهم .. وإنما هو السبيل الوحيد فى نظرهم لحماية موتاهم من مصير مهين .. إذا ما وصلت إليهم أيدى

العصابة التى تسرق الجثث.

عام ونصف العام والذعر يتملك الأسر على مصير موتاهم .. عام ونصف العام يفعلون ذلك صيفاً وشتاءً.. عام ونصف العام يسهر الأحياء على راحة الموتى فى تلك المقابر.

« ابقوا أنتم هنا مع الجماعة.. افتحوا أعينكم جيداً.. أى حركة اضرب فى المليان» قالها العمدة الصغير بلهجة آمرة لبعض الخفر.

توزع الحراس من أسرة العمدة فى جماعات صغيرة متفرقة.. تناثرت حول المقبرة من الرأس إلى القدمين.. فهو ليس أى ميت إنه العمدة الكبير.. بينما تناثر الخفراء بعيداً عنهم بأمتار لمراقبة الممرات الضيقة بين المقابر.. فلا يجتمع أحدهم بآخر مطلقاً إلا خلسة لحظة أن يحتاج بصورة ملحة إلى سيجارة.. أو تُلح به كلمة تهكم أو سخرية لا يستطيع بالطبع إطلاقها على مسامع الجماعات المتفرقة هناك.

« بالك يا واد يا حسونة أنا لو من الناس دول كنت سيبت العصابة تسرق العمدة الكبير.. دا عليهم بخسارة.. أى والله» همس أحد الخفراء لآخر على مقربة منه.

« اخرس يا واد يا عزوز حد يسمعك ونروح فى داهية» قال الآخر مرتبكاً مرتعداً.

وضع الخفير سليط اللسان يده على فيه.. فى محاولة لكتم صوته الذى ظن أنه وصل إلى أسماعهم هناك.. وهرول مسرعاً إلى مكانه.

تهامس الشبان فيما بينهم وتبادلوا القفشات بصوت خفيض عن جدهم «المحروس» بداخل هذا المبنى الصغير ولا شىء على باله مما هم فيه الآن.

بينما تحلَّقَ بعض الرجال يلغطون ويتمتمون.. بكلمات غير مسموعة تقريباً إلا فيما بينهم.. ربما تكون عن الميراث فقد بدوا أنهم أزواج البنات الخمس.

عاد الخفير منفلت اللسان إلى زميله ذى القلب الخفيف.. وكان يكتم ضحكة غالبته .. لدرجة تفضح حزنه الزائف على عمدته الكبير إن لم يتمالك ويكبح جماحها.

« فاكر الولية القرشانة أم اسماعيل لما وصتهم يدفنوها عند أهلها فى آخر الدنيا» يهمس إلى زميله فى حين التزم الزميل الصمت جُبناً .. ولم يكن منه إلا أن تمتم فى نفسه متراجعاً إلى الخلف ليستقر مكانه عازماً ألا يعود لمحادثة هذا الجبان مطلقاً حتى نهاية المناوبة.

تذكر الخفير بينه وبين نفسه أنهم أقسموا لها أن الحراسة ستكون مشددة.. وأن أحداً لن يستطيع أن يقترب من قبرها.. وعاد الوفد الذى ذهب لإقناعها بخيبة أمل كبيرة.. فرأس تلك الهرمة مثل الحجر الصوان.

« نحن جميعاً أولادك .. لا تخشى شيئاً سنحرسك.. وستشعرين بنا » تطوع الرجال مخلصين.. وعلق بعض خفيفى الظل ممازحاً « وإن لم تشعرى بنا فأخرجى جرياً».. فعادت العجوز أكثر تشبثاً من ذى قبل .. وقد خيل لهم أنها كادت تلين.

فحقيقة أنها مقطوعة من شجرة ألحت بها وجعلتها تصر على وصيتها .. فهى هزيلة جداً وتصور لها أنها لن تحتمل ما سيُفعل بها من تمزيق وتكسير إذا ما سرقتها عصابة الجثث.. وبعد أن أسلمت العجوز الروح لم يكن أمام الجميع إلا تنفيذ وصيتها.

انفلتت من الخفير بعض ضحكة عالية .. التفت على إثرها أفراد كثيرون من مرهفى السمع فى الجماعات الصغيرة المتفرقة.. كان الخفير قد أغلق فمه فى سرعة البرق بالضبة والمفتاح.. لحظات قليلة وعادت الجماعات إلى لغطها.. بينما نظر الخفير نحو الفضاء الواسع .. دون أن يفطن أحد إلى أنه هو الذى فعلها.

لاح منظر الجماعات الصغيرة المتفرقة لرجل العصابة على البعد هناك خلف مبان القرية.. تصوروا له كأنهم أعواد ثقاب مرشوقة فى الأرض.. لا يُرى منها سوى رؤوساً سوداء وربما جزء يسير من العنق لا يتعدى قيد أنملة..بينما لا يُرى أثراً للجلابيب البيض مطلقاً.

« أهى تسالى.. يعنى لا جثة ولا تسلية؟» قالها رجل العصابة الذى جاء ليستطلع الأمر.. راق له أن يلملم أعواد الثقاب المتناثرة هذه فى

علبة واحدة.. تسلل فى بطء نحو المقابر كأنه أحد المارة الغرباء يقصد قرية أخرى بعيدة خلف حدود المقابر.

كانت الشمس تحتضر بيد أنه لم يفكر مطلقاً فى سرقة جثتها بعد أن تهمد فيها الحياة .. فهو لن يستطيع الحصول عليها .. لا هو ولا عصابته ولا كل عصابات شيكاغو ولا حتى الجن الأزرق.

تلاشى الشفق الأرجوانى شيئاً شيئاً .. وهبط الظلام حثيثاً ..بدا وحيداً على الطريق كشبح.. لم يكن أحد يلتفت إلى أى شخص يسير بمفرده أو حتى اثنين.. إذ كان اعتقاد الجميع أنها عصابة ضخمة مدججة بالسلاح يعلو وجوه أفرادها الأجرام.

زحف رجل العصابة كالثعبان على بطنه.. تكوم إلى جوار مقبرة نائية شيئاً.. فتح كيس الحصى الذى جمعه على امتداد الطريق إلى المقابر.. بدأ برشق الأولى فى رأس الخفير حسونة.. الذى تحسس مكانها فى رأسه .. ثم قبض على زناد بندقيته الميرى مستعداً للضرب فى المليان.. لكنه عاد لوضعه الطبيعى وهدوئه عندما أقنع نفسه أنها تهيؤات من رهبة المكان.

رشق الثانية فى قفا الخفير عزوز الذى سُمع صياحه ربما فى القرية وهو يردد «عفريت.. عفريت».

ارتبك همس الجماعات المتفرقة.. عمت الفوضى نظام الأعواد المرصوصة بدقة من دون قصد.

« ماذا جرى؟» صاح أحد الأفراد متسائلاً.. وفأفأ الخفير خفيف القلب والعقل منهاراً.

« جتك البلاوى وانت خرع كده» قال آخر وهو يصفعه على قفاه.

عاد الرجل يرشق الجماعات المتفرقة.. حصاة بعد الأخرى حتى تشبث بعضهم ببعض فى ذعرٍ لم يعد يفلح معه أى اعتقاد بالتهيؤات.

« عفريت..عفريت» تمتم جميعهم فى نفس واحد مرتعدين.

« هكذا تماماً أردتكم يا غنم» تمتم رجل العصابة وهو يهز رأسه وينظر بطرف عينه من جانب المقبرة التى اختبأ خلفها.

حصاة أخرى.. اخذ الجميع ذيله فى أسنانه وطار إلى القرية من غير هدى.

تعالت ضحكات الرجل العفريت فى سماء المقابر.. تشق السكون وتخدش قدسية المكان.. مال إلى المقبرة التى كانت محروسة منذ قليل يحدث نفسه ساخراً «ما حاجتنا إلى هذا الليث العجوز الذى نهشه السرطان».

« أغبياء.. أغبياء» أردف بنبرة أكثر سخرية ثم انخرط فى نوبة ضحك هستيرية .



(١٥)

مسيرة الخراف

نظر إلى الأفق البعيد نظرته المعتادة .. والتى تتكرر بين الفينة والأخرى منذ أن مالت الشمس نحو المغرب وجعلت تلملم أشعتها من الكون استعدادا للرحيل..هز رأسه كمن عقد عزمًا ما.. جعل يجهز نفسه للعودة إلى القرية البعيدة.. صاح صيحاته المرعبة فانتظم الجمع فى التو صفوفا كطوابير المدرسة.. أو كتلك الممدة فى قلب الشوارع أمام المجمعات الاستهلاكية.

فى طرفة عين كان الجمع يسير خلفه فى سرعة منتظمة.. يكاد الرائى يحسبهم فرقة عسكرية تؤدى تدريباتها بكل دقة.

زمن طويل علمهم الخنوع والانصياع لكل الأوامر دون نقاش.. زمن طويل تدرب فيه الكبار

على الطاعة العمياء.. وتربى الصغار.

درج الجميع فى كنفه جبناء متخاذلين.. دُمى يحركها كيف يشاء.. تأكل ..تشرب.. تنام.. تذبح.

تدق الصفوف الأرض بأقدامها.. تتطاير ذرات التراب.. تغلف ماتبقى من ومضات الشمس الواهنة فتختنق آخر أنفاس النهار.. تسير الصفوف فى انتظامها دون تغير وهو فى غطرسته لا يلتفت إلى الخلف مرة..بينما لا يجرؤ أحد على التباطؤ أو الشذوذ.

ثُغاء مكتوم تحت سحابات أرجوانية شاحبة على امتداد الطريق إلى القرية البعيدة.. تجدُّ الصفوف رغم تعبها.. تضغط الأرض متحاملة حتى لا تختل سرعتها أو تمس الفوضى انتظامها.. تسير فى خطها المستقيم.. أشبه بآلات مبرمجة.. ثُغاء مكتوم.. قلب فاتر .. سير بلا حماس.

يكاد الليل البهيم الذى جثمَّ على أنفاس الكون يقبض أرواحهم.. ومازالت هناك بضعة أميال إلى القرية البعيدة.. الطريق تطول وتطول على الصفوف المتعبة التى أنهكها طول المسير.. يمر الموكب المنتظم بشجرة الجميز الضخمة على حافة الطريق.. يلوح الهيكل الضخم فى الظلام كأشباح الأساطير اليونانية القديمة.

لم يلتفت أى منهم كما لم يلتفت هو.. مضى الجميع بلا هوادة فى

خطه المستقيم وصفوفه المنتظمة ..لا يجرؤ أحد على التباطؤ أو الشذوذ.

هاهى أخيراً المدينة الكبيرة.. وها هى الطريق الأسفلتية التى يعبرونها فى الذهاب والإياب.. أشعلت أنوار السيارات العالية سماء الليل البهيم فتراجع الظلام مؤقتا.. انعكست على المرايا الجانبية للسيارات صورة متحركة للصفوف منتظمة مسرعة.. مدَّ عنقه زهوا بنفسه وقبضته الحديدية عليهم.

سيارة مسرعة تأتى من الخلف.. تطلق صفاراتها المعروفة.. تنتحى كل السيارات تفسح لها الطريق.. الصفوف ثابتة متشبثة بمكانها تأبى إلا أن تمضى فى خطها المستقيم وسرعتها المنتظمة.. دوى الصفير فى آذان الكون.. لم يلتفت.. ولم تفسح الصفوف.. السيارة تصفر وتصفر.. نزل السائق.. طوح بيديه هنا وهناك.. سائرون فى طريقهم دون اكتراث.. صاح «أفسحوا» .. لم يلتفت.. ولم يفسحوا.. زعق فى كل اتجاه.. لم يلتفت.. ولم يفسحوا.

عاد السائق إلى سيارته.. أمسك بعجلة القيادة.. داس بكل قوته.. جعل يدهسهم الواحد تلو الآخر .. لم يلتفت.. ولم يفسحوا .

كم واحد مات؟ كثيرون؟ ثلثهم؟ نصفهم؟ كلهم؟ لا يهم.

المهم أنهم لم يشقوا عصا الطاعة!

عبر بما تبقى من صفوفة تلك الطريق الأسفلتية.. لم يلتفت .

الصفوف تسير خلفه فى خطهـا المسـتقيم وسـرعتها المنتظمـة.. بينما لا يجرؤ أحد على التباطؤ أو الشذوذ.

صعد الدرج.. تناثرت الخراف التـى هـدَّها التعـب عـلى أرضـية الفناء الواسع.. المسور بأسلاك شائكة تكاد تطاول السماء.



الفهرس